حياة العلامة احمد تيمور باشا (١)

« ذكريات شخصية »

مبدأ التعارف ونشأته وأخلاقه

لما هبطتُ مصر اول مرة في سنة ١٩٠١ أرادني احد أصدقائي وأظنه الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار على ان أزور احمد تيمور بك وقال ان في بيته اليوم اجتماعاً بفهم شيخنا الامام الشيخ محمد عبده وجماعته فبادرت شاكراً له دلالته ، فدخلنا داراً لوراء على الطراز القديم من البناء ، وكان في الجلسة طائفة من العلماء والادباء ، ومنهم فيما أذكر حسن باشا عاصم وقاسم بك امين وفتحي باشا زغلول والشيخ عبد العزيز شاويش والشيخ محمد المهدي والشيخ حسن منصور والشيخ احمد الاسكندري ، ولا أذكر ان كان في الجمع يومئذ سعد باشا زغلول وحفني بك ناصف واسماعيل باشا صبري ومحمود سامي باشا البارودي وعلي بك بهجت واسماعيل بك رأفت وعبد العزيز بك محمد والسيد محمد الببلاوي وحافظ بك ابراهيم والشيخ احمد ابراهيم والشيخ عبد الوهاب النجار فان الجمع ما كان يقل عن عشرين رجلاً . وهؤلاء كانوا من حلقة الاستاذ الامام ومن أصدقاء احمد تيمور بك .

تجلت لي يومئذ ظاهرة من ظواهر عظمة مصر بعظماء رجالها ، ورأيت عطفاً على غريب صعلوك شاب اكبرت معه بما شهدت تناهي المهربين في التأدب والرقة ، خصوصاً اذا كانوا من هذا الطراز الممتاز . ولقيت ذاك اليوم من أدب صاحب الدار ما يهرفي فانعقدت بيننا اواخي الاخاء . وهذا المجلس كان المرحلة الاولى التي فتحت أمامي الدخول في المجتمع المصري ، وتشرفت بعشرة هذه الطبقة المختارة . رحم الله من سبقونا الى الدار

---

(١) محاضرة الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي القاها في قاعة المجمع في هذا الشهر .

الآخرة ومد في أعمار الاحياء منهم . غدوت منذ ذاك اليوم أحرص على الاجتماع باحمد تيمور ورعيله والاخذ عنهم ، وانشأت اكثر سوادهم لاني استطبت عشرتهم .

وكان تيمور في ذاك الحين يقرأ على الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي امام اللغة في عصره . وقال لي هذا مرة انه لم ير في مصر من يفهم كلام العرب مثل الشيخ محمد عبده واحمد بك تيمور ، وذكر شخصاً آخر أنسيته . وكان تيمور تخرج في صباه في دار ابيه باستاذه الشيخ رضوان المخللاتي ولازم أستاذه الشيخ حسن الطويل فيلسوف الازهر وشيخ شيوخها مدة طويلة ، فأخذ عنه العلوم الدينية والعقلية والادبية . واتصل بعد ذلك بعلماء عصره كالشيخ العدوي والشيخ الهوريني والشيخ الحسيني ثم مؤخراً بالشيخ طاهر الجزائري . ولكثرة ما استهوى قلبه حب الشيخ محمد عبده ابتاع بجواره في عين شمس داراً بحديقة جميلة ونقل اليها من العاصمة خزانة كتبه ولازمه ملازمة المستفيد المغتبط .

وما زالت الصداقة تزيد بيني وبين احمد تيمور حتى كانت السنة التي أنشأت فيها مجلة المقتبس في القاهرة غرة المحرم سنة ١٣٢٤ . وكنت ازداد إعجاباً مما أرى من اخلاقه وحرصه على الاستفادة من مجلس الامام محمد عبده واللغوي الشنقيطي وأضرابهما ، ممن يغشون مجلسه او يغشى مجالسهم وأحس منه عزوفاً حتى عن بعض المشهورين ، وتحرزاً من مخالطة من لا يعرف ماضيه وحاضره . فكان وهو في تلك الحقبة من حياته بعيداً عن القوم قريباً منهم ، يهتم لسعادة أصحابه و يرمضه اذا نزلت بهم نازلة ، ويتبسط مع خاصته تبسطاً ما خرج فيه يوماً عن حدود الأدب والفكاهة ، وما تعدى حواره البحث عن ما في الكتب مطبوعها ومخطوطها والنظر فيما يعلي شأن الاسلام والعرب . واخذ قبيل ذاك العهد يكتب آراءه وأبحاثه في جريدتي المؤيد والاهرام ومجلات المقتطف والضياء والهلال والمقتبس ثم السلفية والآثار والزهراء وغيرها . والغالب انه كان يكتب في المناسبات او متى أريد على معالجة موضوع غامض يحتاج الى درس ، او يعرض ما عنده من المواد المهمة التي يستعان بها على ظهور الحقيقة .

وكان لاول عهدي به لا يبين رأيه في بعض معاصريه ، وان كان منهم لا تروقه حركاته وأفكاره ، هذا وهو على يقين من ان بعض الازهريين كانوا منذ اخذت تعظم شهرته ، يحسدونه و يصغرون من شأنه . ومنهم من كان يعده في الجهلاء لان احمد تيمور

على غناه وشرف بيته لايهنأ له عيش الا اذا أنفق ماله على العلم وعلى المعوزين من المساتير. وما عدا ذلك من أبواب النفقات ليس له فضل في موازنة بيته ، بل كان عيشه في الحقيقة عيش اهل الطبقة الوسطى ، مع ان ما أوتيه من اليسار كان يتأتى له به ان ينفقه في ضروب من البذخ والرفاهية ، يسمو به الى محاكاة الطبقات التي تماثله بغنـاء في القطر المصري .

قلت انه كان ينفق على المساتير وربما كاد اقتصـاده يعد امساكاً في نظر بعض من لايعرفون للمال قيمة (مجلة المجمع العلمي م ٤ ص ٣٤١) ولا يحكون على ار باب المروآت الا بما يبدو من مظاهرهم وظواهرهم . فكان مايرمي به حسداً ولؤماً يترامى الى سمعه فيبتسم ولا يفوه بكلمة . غبرت ايام وأعوام ثبت بعدها من طريق احد المتفضل عليهم انه كان يدرّ المشاهرات على بيوت كثيرة في مصر ، قعد الدهر بار بابها فأعجزهم عن الكسب . فكان يرسل اليهم على رأس كل شهر مع احد مستخدمي دائرته بما يقوم بنفقتهم سراً ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه اذاعة ماتجود به نفسه ، ليتكثر بحسناته جدالتكثر ، وقد اخذ العهود على من يحسن اليهم ان لا يذيعوا له سراً . ولما اشتهر امر صدقاته شق عليه ذلك فتظاهر بان أطيانه أصبحت لاتعطيه الريع الذي كان يأتيه منها وانه في ضائقة من المال اضطرته الى تخفيف نفقاته . وبعد مدة أصبح هؤلاء الذين عاشوا زمناً بنعمته يتناولون من المصرف حوالات مالية تأتي باسمائهم وهم لايعرفون مصدرها بل ان المصرف ذاته لا يعرف حقيقة مرسلها . فتأمل بربك هذه النفس الكريمة المسلمة وهذه الأخلاق التي لا تشهد مثلها في مئة غني من اغنياء زماننا .

حقيقة ان وجه الغرابة في تربية مترجمنا هو انه اخذ من العلم أقصى ما يمكن اخذه لمن كان في أصالة بيته ، فأتقن من اللغات العربية والافرنسية ، وهذه درسها في مدرسة (مارسيل) مدرسة أبناء الاعيان خمس سنين ، وتلقف الفارسية والتركية على أساتذة خصوصيين ، ونشأ يتيماً في حجر أخته المرحومة عائشة عصمت التيمورية الشاعرة الاديبة المشهورة فجاء منه مع هذا الفتى رجل علم ورحمة وقصد وتدين وعزوف عن المظاهر والاشتغال فيما ينفع . ولو أراد لاول امره على ما لابيه وجده من المنزلة عند الأسرة المالكة ان يدخل في المناصب الحكومية لخطبته الوزارات ، ولماتخطته الرئاسات والزعامات .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ولكن كان نبوغه يخصر في دائرة خاصة ولا تنبعث مواهبه العلمية الانبعاث الذي قدر لها باشتغاله في جو هادىء لا تكدر صفوه مشاغب الاحزاب ولا متاعب السياسة واهواؤها فاقتصد من وقته في هذه الناحية . وشغله طول عمره في ملاذ روحية من مطالعة و بحث وتأليف قلّ ان تتاح لكثير ممن شغفوا بالعلم ، وحاولوا استثماره لفائدته ولذته لا لمقصد آخر .

فلت كانت لابيه وجده المنزلة العليا عند الأسرة العلوية . جاء جده احمد مع جد شاعر العصر احمد شوقي بك الى مصر ، وكانا من ابناء الاكراد ، وجد مترجمنا من مدينة الموصل ، ارسلهما والي عكا الى محمد علي الكبير واوصاه بهما خيراً قائلا ان النجابة بادية عليهما وانهما سيبلوان البلاء الحسن في خدمة الدولة المصرية ، فعين جد مترجمنا في وظائف انتهت به ان عد في آخر امره من قواد محمد علي ، كان ابنه من بعده رئيس الديوان الخديوي . وخلف اطياناً كان ما اصاب المترجم منها مع ماابتاعه بأخرة من بقية الورثة نحو ثلاثة آلاف فدان ، وكان يتعهدها احسن تعهد ولا تصرفه عن طلب العلم بل تساعده على اتمام رغائبه منه . وكم من ابناء الاعيان امثاله من اورثهم آباؤهم الوف الافدنة لم يحسنوا استغلالها ، وانفقوها بسوء تربيتهم في شهواتهم واسرافهم او ضاربوا فاستدانوا فافتقروا . اما هو فخالف جمهرة جيله فكان بالتربية الاسلامية العالية التي لقنها في صباه غنياً بماله ، غنياً بعلمه ، غنياً بتدبيره وعقله . تجردت نفسه الكريمة عن المطامع ، ومع هذا اقبلت عليه الدنيا من طريقها المشروع المعقول .

غرامه بالكتب واحتفاله بجمعها

عرفنا بما تقدم ان بيت تيمور كان بيت علم وفضائل ومجد تليد طريف . فلما نشأ عاله هذه النشأة الطيبة ، رأى في داره خزانة كتب صغيرة لم تشبع نهمته العلمية فقام في نفسه منذ سنة ١٨٨٩ ان يقتني من المخطوطات والمطبوعات ما يتلاءم موضوعه مع ما غلب عليه من العلوم ، وما يزال ينفق على اقتناء مجموعاته عن سعة وهو يطالعها و يعلق عليها ويخدمها بالفهارس والحواشي حتى تألف منها قبيل وفاته خزانة كتب تقدر بنحو ثلاثة عشر الف مجلد ، عدا الصور التاريخية والآلات الفلكية ومحابر واقلام كانت لبعض

المشاهير ونحو نصف خزانته مخطوط او مصور بالتصوير الجديد . وقد وضع لمخطوطاته قائمة جليلة كانت مرجعاً لكل طالب وطابع وناشر من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات ، وقلما كان يضن بها على احد ، يعيرها حتى الى البلاد البعيدة ، فاشتهرت في الشرق والغرب ، وُعدت بحق اهم خزانة خاصة في بلاد المشرق لغناها بمخطوطاتها النادرة ، ومنها عشرات من الكتب كتبت بخط مؤلفيها او قرأ فيها اعلام من رجال السلف او قرئ عليهم وعلقوا عليها واجازوها .

أُتيح لي ان اصف هذه الخزانة التيمورية في سنة ١٣٣٠هـ وكانت اذذاك نحو ثمانية آلاف مجلد . وكان صاحبها دعاني مع أستاذي العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري الى زيارتها في عزبته في قويسنا من عمل مديرية المنوفية في الدلتا وهي احدى مزارعه كان يؤثرها على غيرها لان اباه وامه كانا يحبان المقام في قصرها وينزلان فيها اياماً معدودة من كل سنة . ذلك ان احمد تيمور اسودت العاصمة في وجهه بعد وفاة شيخه وصديقه الشيخ محمد عبده وزهد بعده بالدار التي كان اقتناها في جواره فرأى ان ينقل خزانته من عين شمس وحملها الى قويسنا ورتبها في خزائنها احسن ترتيب فكان ينزع اليها كل حين ليطالع و يؤلف .

ولقد قضينا في ضيافته ثلاثة ايام كان خلالها يقرأ علينا اسماء الكتب المخطوطة وأستاذنا الجزائري يتولى الترجيح في اختيار الاندر فالاندر ، فوصفت الخزانة اذ ذاك في احدى وعشرين صفحة في المجلد السابع من مجلة المقتبس . ولقد قلت له يومئذ ان وجود الخزانة في داره بقويسنا لا يؤمن عليها من الحريق ، لان الدار متلاصقة مع بيوت الفلاحين ، والفلاحون يضعون الخوص والعيدان على سطوح بيوتهم ، فاذا سرت النار الى بيت من البيوت لا تلبث العزبة وما اليها ان تحرق في ساعة . وفي ذلك من الخسارة على العلم ما فيه . فاجابني ان في نيته ان يعمر لها داراً في مصر ينقلها اليها ، وغبرت مدة واشترى ارضاً في الزمالك احد الاحياء الجديدة في القاهرة وعمرها ونقل الخزانة اليها بعد سنة ١٣٤٠ وكتب (في ٢ يونيه ١٩٢٣) يقول: « ان الخزانة رتبت والحمد لله ولم يبق الا عمل فهرس جديد لها على الطراز الحديث في الجزازات ولابد لها من ثلاثة فهارس فني ومعجمي وآخر لاسماء المؤلفين فأرجو ان يوفقني الله لمن يقوم بعمله لان أشتغالي به سيعطلني عما بيدي » ثم وقفها و وقف عليها بعض اطيان تقوم بنفقاتها ، وجدّ واي جدّ في ابتياع

ما ينقص مجموعته في كل علم من المطبوعات والمخطوطات ، وربما لا يقل ما انفق عليهما عن مئة الف جنيه ، ثم نزل عنهما للامة المصرية الكريمة بل للعالم العربي الاسلامي فأعظم بها من مأثرة .

سعة علمه التي جعلته مرجعاً

توطدت صلات الحب والتشاكل في وحدة المقصد في سني ١٩٠٦و٧و٨ بعد نشري مجلة المقتبس لمكان يؤازرني فيها ، ويميرني كثيراً من مخطوطات خزانته أكتب في وصفها في المجلة ، فلما رحلت عن مصر الى دمشق في آخر سنة ١٩٠٨ بعد انشاء الدستور العثماني استعضنا عن المسامرة والمذاكرة ، بالمراسلة والمخابرة ، ولم تكد تنقطع رسائله او رسائلي مدة قصيرة الا لمعذرة كمدة الحرب العالمية الكبرى ، وقد انقطعت المواصلات بين مصر والشام اربع سنين . وجدت في اضبارة خاصة برسائله الي مئة واربعين رسالة عدا ما أرسله باسمي الى المجمع العلمي العربي مباشرة منذ أواخر سنة ١٩١٩ . ومجموعة رسائله خلاصة علم وبحث عن المفقود او الموجود من المخطوطات ومنها مشاكل في اللغة والأدب والتاريخ .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد كنت منذ توطدت بيننا أواصر الصداقة التي زادها تمكيناً وجود أستاذي الشيخ طاهر الجزائري في القاهرة مدة ثلاث عشرة سنة وكان هو على اتصال وثيق به بعده أعز عزيز عليه بعد شيخه الامام محمد عبده — اذا عرض لي او لبعض أعضاء المجمع اشكال لغوي او تاريخي او أحببت ان أعرف كتاباً في موضوع يعنيني البحث عنه لا أجد من يشفي غلتي خصوصاً بعد فقد أستاذنا الجزائري غير المرحوم احمد تيمور . ومجموعة كتبه الي تؤلف مجلداً مفيداً جداً في هذه الابحاث . ولا سيما ما كان منها ذا علاقة باسفار القدماء من الأسلاف فهو في هذا الموضوع المفرد العلم والصدر المقدم والبحاثة الواسع المادة ، البعيد النظر ، الصحيح الاستنتاج والاستقراء . ساعدته على ذلك جودة ذاكرته وتقييده في دفاتره كل ما يعثر عليه في الكتب التي يقتنيها ويصنف لها الفهارس التي تقرب منال الاخذ منها على أحدث طراز في هذا الباب .

رأيت كثيرين من غلاة الكتب من الشرقيين والغربيين وقل ان عرفت مثله من

اذا تكلم في الكتب كان كلامه عن ذوق وتحقيق . وذلك لانه يطالع كثيراً ويقيد كل ما يظفر به ولا ينسى ويحسن الاختيار ويجوّد النقد . وقد كتبت له عامة أسباب النجاح في هذا الباب لانه عالم يُعنى بتعهد عمله بالتنمية كل يوم ويجمع الكتب ويحرص على قنناء نوادرها خصوصاً ، ويغلي لها الثمن معتقداً انها هي الكنز الثمين . وكانت اذا صارت الاسفار الى ملكه لايلقيها كما يلقيها اكثر هواة الاسفار و يبرد شوقهم اليها بمجرد تقليب صفحاتها والالمام بمضامينها او بمجرد انتقالها الى خزائنهم فقط فتراهم يرجئون النظر فيها اذا ملكوها لتشاغلهم بامرآخر او لانهم ممن يهوون حجمها وشكلهـا و يزهدون بما في بطونها . اما هو فيشرع حالاً بدرس مايقتنيه ويتناولها باليمنى فرحاً بقدمها ، مقدساً لعمل مؤلفها مغتبطاً باقتنائها يحملها بالتجلة ويودعها قمطره بالاعظام ، ولا يزال بها حتى يحفيها درساً بالفاظهـا ومعانيها . ولطالما هنأني على ما كنت أظفر به من نوادر المطبوعات والمخطوطات كأنني ولد لي مولود او أظفرني حسن الطالع بعزيز مفقود . وفي العادة ان يضن غلاة الكتب بكتبهم اما هو فقد تعوّد بسط الكف فيها لان غايته منها نشر العلم وإحياء آثار السلف . كتب اليّ مرة (٢٩ جمادى الثانية ١٣٤٢) يقول : « نقلت لك ترجمة الصدر الآمدي من مخطوطين نادرين عندي ولا يبعد ان يكون السخاوي ترجمه ايضاً في الضوء ولست على يقين من ذلك لان نسختي استعارها احد الاصحاب من ثلاث سنوات ولم تزل عنده ولا يريد ردها وكلما احتجت الى الكشف عن ترجمة أذهب الى عنده واكشف عنها . » فتأمل هذا الشغف بنشر العلم وهذا اللطف حتى مع المتساهلين في رد الكتب الى أربابها ، وقد تكون مما لايقع عليه ثمن .

مثال من تهذيبه

لما صح عزمي على نشر كتابي « خطط الشام » كان يبعث اليّ في البريد بالنوادر من المخطوطات التي أطلبها او لا اطلبها ، عساني اظفر فيها بجمل تدخل في موضوعاتي ، و كنت أعيدها الى مصر في البريد المضمون ، ولا ترتاح النفس الا اذا اخذت علماً منه بوصولها ، فاسدى بذلك اليّ يداً لا تنسى على وجه الزمان ، ومنها ما كان ينسخه بالتصوير الابيض على الاسود و يرسلهـا هدية الى المجمع العلمي العربي و كثير مما في خزانة المجمع من هذه

النوادر المصورة هو من هدايا احمد تيمور ، ولطالما اهدى اصحابه ومن يعملون لمصلحة عامة اشياء من هذا القبيل ولم تؤسس في الشرق العربي خزانة كتب الا كانت هداياه اليها اول الهدايا . لا يضن في هذه السبيل بعشرات الجنيهات اذا ايقن من ورائها خدمة للمسلمين والعرب .

ولما تم تأليف الخطط وقد خدمه بعلمه ومادياته وشعر بانني اريد ان اقدمه اليه عرفاناً لجميله تأفف وتنصل وحاول ان يقنعني بالعدول عن قصدي ومما كتبه الي في هذا الشأن (٩ جمادى الاولى ١٣٤٢) :

« سرني اهتمامك بانجاز الخطط وهو ما كنت احثك عليه دائماً فأسأله تعالى ان يتولاك بعنايته وتوفيقه حتى تتم هذا العمل العظيم النافع وقد احسنت كل الاحسان في تخصيص فصل منه لتاريخ الشام السياسي كما فعل من كتب قبلك في الخطط واذا وفقت الى طبعه على مثال طبع المجلة فسيكون على احسن مثال . اما صورتي فليس عندي احدث منها لاني لم اصور نفسي بعدها وتصدير كتابك بها فضل كبير تطوق به عنقي وتنبه من ذكري ولكن هل لك ان تسمح كلمة مني واقسم لك انني لا اقولها تواضعاً وتحاشماً وهي ان تعدل عن ذلك لاني لا ارى لي من الفضل ما استحق به ان اصور في فاتحة كتاب كهذا وما هو بمنع مني ولكنه رجاء أرجو ان تقبله . » وعاد في كتاب فكرر هذا المعنى راجياً اعفاءه من هذه التقدمة قال (٢١ جمادى الاولى ١٣٤٣) : وصلني كتابك فأخجلني مافيه وقد كنت استعفيتك من وضع صورتي في الخطط فأكرر الآن هذا الاستعفاء شاكراً حسن ظنك وجميل رأيك و يعلم الله اني لا أقول ذلك تواضعاً فهل لسيدي ان يحسن الي باعفائي من ذلك وله مني الشكر الجزيل والثناء المكرر » وكتب ايضاً بهذه المناسبة بتاريخ ٢١ شعبان ١٣٤٣ : « وصلتني الملزمة الاولى من الخطط وقرأت مقدمتها واذا ساغ لي شكر سيدي الحبيب على ماتفضل من التنوه به في افلا تسوغ معاتبته على هذا الغلو والاغراق . حقاً ياسيدي انك بالغت مبالغة أخجلتني فيها وأفحمتني فلا أدري ما اقول والله سبحانه يجزيك خير الجزاء على حسن ظنك بي الى هذا الحد . »

وهكذا كان أدب نفسه يوم أراد صديقه ان يقابل بعض جميله و يقول في نعته مايعتقده و يعتقده كل من سبر غور اخلاقه وسعة علمه . وهو يستقل ما يعمل ، شأن ارباب الهمم

العالية و يستكثر مايعمل له ، فقد أهدى دمشق مجموعة بديعة من النقود القديمة قال لي صديقي امير الشعراء احمد شوقي بك انه لم يجمعها هو وحده بل جمع فيها ابوه وجده من قبله ، ومع ذلك كان في اهدائها متواضعاً . فقد كتب في ٢ رجب سنة ١٣٤٢ « عندي مجموعة نقود قديمة من دنانير ودراهم وفلوس جلها من النقود العربية وعددها (٤١٨) قطعة ومعها مجموعة أختام قديمة عددها (٣٤) قطعة وقد رأيت اهداءها لدار الآثار العربية بدمشق وكتبت لكم جريدة ببيانها وسأسلمها جميعها لحضرة السيد الكسم ليحملها اليكم في عودته فأرجو التكرم بقبولها وغض النظر عن تفاهتها ولكم الفضل » . وعاد فأكمل هذه المجموعة بمجموعة أخرى من الدنانير الذهبية القديمة وعدّ كل ذلك تافهاً .

بعده عن الظهور وإيثاره العزلة

لما تولى جلالة الملك فؤاد ملك مصر منحه رتبة الباشوية فتمنّع لانها صدرت عن عاطفة عالية نحوه ولم يسعه الا قبولها . ولما هنأته بها أجابني : « اما الرتب فسيدي يعلم رأيي فيها من قديم ولكنها لما كانت عنوان العطف شكرت مولاي السلطان بقلبي ولساني على عطفه » . ولما عين عضواً في مجلس الشيوخ ضاق صدره ايضاً فكتب اليّ (١٠ آذار سنة ١٩٢٤) يقول : اما عضوية الشيوخ فقد تورطت فيها إطاعة لرغبة جلالة الملك وحاولت التفصي فلم أفلح اذ لايخفى على سيدي دقة هذا المركز في وسط العاصفة الثائرة ولاسيما ان امر البت في مصير القطر سيكون في هذه النوبة من انعقاد المجلس وهو ما كنت أتوخى الابتعاد عنه ما امكن لاسباب كثيرة تعرفها » . وكتب ايضاً : (١٦ ربيع الثاني ١٣٤٣) « صحت عزيمتي على الاستقالة من مجلس الشيوخ وكنت على وشك تقديمها لولا عقبات قامت بوجهي اهمها استرضاء جلالة الملك فارجو الله تعالى ان يهيئ لي باب الخلاص .

وحقاً انه كان يحب الابتعاد عن السياسة كل البعد ، ولكن مصالح بلده تستلزم استدعاءه في الأحايين ، فكان الموضوع الذي يلذه كونه عضواً في مجلس الازهر، وعضواً في مجلس دار الكتب المصرية ، او في كل مجمع علمي مؤسس في مصر اوغير مصر . اما كونه عضواً في الشيوخ فهذا مالا ترضى عنه نفسه ولا تسمح بالاضطلاع به تربيته ،

وهو الذي عاش هادئاً مسالماً يصرح بما يعرف ولا يتعدى طوره . كتب يقول : (في ٢ يونيه سنة ١٩٢٣) « يعلم سيدي الاخ اني لا أعرف من السياسة الا مادة ساس يسوس التي أراها في المعاجم فاذا ذكرت الحكومة بخير او بشر فانما أذكرها من الوجهة العلمية فقط . فمن دلائل عناية الحكومة الحاضرة بالعلم الانعام برتبة باشا على صديقكم احمد كمال باشا الاثري الشهير وتقرير طبع معجمه المصري العربي الفرنسي على نفقتها وستشرع في ذلك قريباً واحداث مدرسة للسان المصري يتولى هذا العلامة التدريس فيها اما المعجم ففي عشرين جزءاً ولا يستطيع طبع مثله في الشرق الا الحكومات » .

وكتب في ١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ : « ويظهر ان الوحدة من الوسائل الناجعة في صحتي متفرغي فيها لما اشتهي من المطالعة في راحة وهدوء بال وبعد عن القيل والقال ومجالس لمدن التي أصبحت أجد نفسي غريباً عنها ، ولله در من قال :

هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا من قبله فتمنى فسحة الأجل

ARCHIVE

وكتب في ٢٢ رجب سنة ١٣٣٨ : « وقد كان سيدنا وأستاذنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله رفيقي هنا ورفيقي الوحيد عندما اكون بالقاهرة فشاء القدر ان يفجعنا به ولا يبقي لنا من تلك الايام الا الذكرى المؤلمة والاسف المتواصل . حالنا يا سيدي الاخ عجيب غريب في هذا التطور الجديد . فقد اصبحت العامة والخاصة الجهال والعلماء في مستوى واحد من الآراء ونعمت والله الحالة لولا انه عمل صالح مرفوع الى أسفل ونتيجة منطقية تابعة للاخس من المقدمتين . فقل لي بعيشك اي انس في الاجتماع واية لذة في المخالطة وقد أصبح من المحتم على المرء قبول كل مايقال على تغيره وتناقضه كل يوم والا فالويل له ثم الويل . ولهذا تراني في اكثر اوقاتي جانحاً بوحدتي بقويسنا مكتفياً بمنادمة كتبي وقد أنجزت في هذه الفترة بعض ما كانت تتوق اليه نفسي من المواضيع واملي أوفق الى طبع بعضها متى انخفض ثمن الورق » . وكتب ايضاً (في ٢٩ شوال سنة ١٣٤٤) : « احوالنا الخاصة والعامة غير مرضية فقد بعنا القطن بثمن بخس لا يفي بنفقاته وخسر المزارعون هذه السنة خسارة كبيرة ، اما الاحوال العامة فسيدي عالم بها من الجرائد الضالة المضلة والمصير مجهول ولكن الله لطيف بعباده » .

ومن مجموع هذه النتف من رسائله تتجلى روح احمد تيمور ، وبعد نظره في مسائل وطنه وان زعم انه لا يعرف مداخلها ومخارجها .

حرصه على المصلحة العلمية

لما صدر الامر بتوقيف اعمال المجمع العلمي العربي في أواخر العهد الفيصلي ساءه ذلك جداً وكتب مرة (٢٨ ربيع الاول سنة ١٣٤٣) : « رأيت في بعض الجرائد السورية نبأ ساءني عن المجمع والعزم على الغائه فعسى ان يكون نبأ كاذباً . فلا يهدم بذلك اعظم صرح من صروح النهضة اللغوية في الشرق » . وكتب قبل هذا التاريخ (٥ شوال سنة ١٣٤٠) : « وقد كان سروري لا يقدر من النبأ الذي بشرتموني به بثبات المجمع وبقائه وهو البقية الصالحة والامل الوحيد لانصار العربية » . وكتب (٤ يناير سنة ١٩٢٣) : « اننا في حاجة كبرى لألفاظ عربية تغنينا عن الدخيل ولهذا نرحب بكل لفظة فصيحة ترادف أخرى دخيلة ، بل النظر في وضع هذه الألفاظ من اهم ما تشتغل به المجامع اللغوية ان لم يكن اهمها كلها ، وقد عني مجمعنا الدمشقي بذلك واتى بفوائد لا تنكر » . وقال في نفس هذه الرسالة : « المجمع امثنا الوحيد في إنهاض اللغة فلهذا نقابل كل خبر سيء عنه بارتياع عظيم فنشكر همة الاستاذ الكبير فارس بك الخوري ونرجو ان يكون في اتباعه للاتحاد السوري ما نؤمله له من الثبات » . وكتب (٣ رجب ١٣٤٤) : « ساءني جداً فتور المجمع عندكم وتوقف المجلة عن الصدور وهي التي كنا نعدها من مفاخرنا » .

اما بشأن المجامع التي ألفت لغرض خدمة العربية بمصر ، فقد كتب (٢٦ جمادى الاولى ١٣٣٧) : « واما الاخبار العامة فتأليف المجمع اللغوي برئاسة شيخ الجامع الازهر وانضمام من هب ودب اليه والامل فيه قليل والسير بطيء وقد مضى علينا سنتان لم نضع فيها شيئاً ونفسي تحدثني بالاستقالة منه وقد فاتحت الاستاذ الطاهر في ذلك فصوب رأيي ولكنه أوصاني بالتريث » . وكتب ايضاً : « اما مجمعنا بمصر فلا أدري ما قُدّر له ولا أخفي عليك اني أميل فيه الى التشاؤم ولا سيما بعد ان سمعت اقتراحات لبعضهم بضم أشخاص اشتهروا بانتصارهم للعجمة وفتح الصدر لكل دخيل وسنرى ما سيكون فربما كان

حكمي غير مصيب وارجو ان يكون كذلك » . وكتب (٢٢ رجب ١٣٣٨) : « الحركة العلمية بمصر نائمة ومجمعنا اللغوي في حكم المعدوم » . وكتب في ٦ يوليو سنة ١٩٢٣ : وفيه دليل على شدة غرامه باحياء آثار السلف قال : « اخبر سيدي بخبر اعرف انه يسره ، ولكني اود ان يظل مكتوماً حتى نبدأ فيه بالعمل فانه لم يزل الى الآن في حيز القول ذلك ان الفاضلين النشيطين الشيخ عبدالمعطي السقاء المدرس بالازهر واحد المولعين بالكتب والسيد محب الدين الخطيب فكرا في تأليف شركة لاحياء آثار السلف بالطبع على نمط جمعية المعارف القديمة وخاطباني في ان اتولى امرها فرضيت بان اتولى السعي فيها واقترحت ان تسند رئاستها لصاحب المعالي حشمت باشا وزير الخارجية الآن اعترافاً بفضل الرجل لانه صاحب اليد البيضاء على مشروع إحياء الآداب العربية لدار الكتب والواضع له وكل كتاب يطبع فيها الآن فهو من ثمرات غرسه فوافقا ، ثم قيدنا اسماء من رأينا انهم يصلحون لان يكونوا مؤسسين واعضاء لمجلس الادارة ممن يثق الناس بهم واشتهروا بعلم او جاه او ثروة واخذنا نطوف عليهم نعرض عليهم المشروع ونبين لهم فوائده ، فقابلنا من اكثرهم الا بالفتور والوجوم ولم نر من هش للمشروع وحث عليه غير اسماعيل رأفت بك وعلي بهجت بك ولكن ذلك لم يمنعنا من الدأب ومواصلة السعي حتى يتم المرغوب ومتى وفقنا لتأليف الاعضاء نعرض امر الرئاسة وقتئذ على حشمت باشا والله سبحانه الموفق » .

واشار في رسائل له غيرمرة الى يأسه من قيام الاعمال النافعة بايدي الافراد والى ان القوم في وادٍ آخر . وبقدر ما كنت تراه يحرص على إحياء آثار السلف لعلمه بانها التركة الثمينة الناطقة بمدنيتنا النافعة في حاضرنا ومستقبلنا ، كان يرغب عن إحياء الكتب التي يعتقد الضرر بنشرها ، فقد كتب (في ١٤ ابريل ١٩٢٣) : من اخبار الكتب ان السيد كاظماً الدجيلي كتب يسألني عن كتاب المثالب لابن الكلبي وانه عثر على قطعة منه بالعراق يود تكميلها ، ولا يخفى انه في مثالب العرب . فكتبت اليه اني لا اعرف عنه شيئاً ، وقلت له انه وان يكن بعدُ من النوادر فليت كل نادر مفقود كان من نوعه فليذهب غير مأسوف عليه » .

* * *

كلام على تآليفه

قلت ان احمد تيمور كان عزوفاً عن الناس وكان ايضاً زاهداً في الشهرة فشهرته كانت لتبعه بالضرورة وما كان في الواقع عبداً لها يتبعها فتستجيب له او لا تستجيب ، ولو قصد الى الشهرة لكانت منه على طرف الثمام ، ولكن يُمنى على الاقل بطبع مؤلفاته في حياته ويقلل من العناية بعضها مكتفياً بما تهيأ له . واكثر ما ألفه وطبعه في حياته كانت تدعوه اليه الدواعي مثل رسالته في الرتب والألقاب فقد كتب اليّ في « ٢٥ جمادى الاولى ١٣٤٣ ، واني أشكر سيدي الاخ على تفكيره في إعادة طبع بعض آثاري التافهة التي لا تستحق هذه العناية ، فرسالة الرتب والالقاب لم أضعها في الاصل لتطبع بل جملتها مادة أقدمها للحكومة للمناقشة فيها في الوقت الذي عزمت فيه على تغيير الالقاب فلما رأيتها أبقت على أغلب الالقاب الاعجمية ضربت عنها صفحاً ، ثم رآها عندي السيد محب الدين الخطيب فنقلها ثم تكرم بطبعها ، واما طبقات المهندسين فلا أظن في نشرها بمجلة المجمع فائدة بعدما نشرت بالهندسة فلتدع صفحات المجلة لما هو أفيد منهما وعسى ان اجد فرصة لأعيد النظر فيها وأضم اليها زيادات اطبعها على حدة » .

وكتب في (٢٢ ذي القعدة ١٣٤٣) : « رحلت هذا الشهر لبعض البلاد المصرية ترويحاً للنفس فقادني الطواف الى المنصورة فزرت بها اثراً تاريخياً نفيساً هو بقايا دار ابن لقمان التي اعتقل بها لويز التاسع في إغارته على مصر وقد كتبت بحثاً عن هذه الدار رجعت فيه الى المصادر العربية والافرنجية وسلمته امس قبل سفري الى اخينا محب الدين لينشره في الزهراء . وقد كان لهذا الاثر ياسيدي اثر في نفسي تذكرت به ماضينا وسألت الله ان يلطف بنا في حاضرنا ويهيء لنا منه مخرجاً فهو اللطيف بعباده » .

وكتب في (٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٤٠) بشأن كتابه التراجم مانصه : « كتاب التراجم لم أشتغل به الا يسيراً ومرادي ان يكون خاصاً باعيان الشرق في القرن الثالث عشر الهجري اي ان يكون كالذيل لسلك الدرر ثم أُلحقه بذيل في تراجم اعيان اوائل القرن الرابع عشر وكل ماأنجزته منه لايخرج عن تمهيدات وسألخص فيه من الجبرتي ومن خطط علي باشا وأضم بعد ذلك مااستطيع جمعه . الا ان معجم العامية المصرية والكلام

على اصولها ومايقابلها من الصحيح يستغرق اوقاتي كما تستغرق اوقاتكم الخطط ومن الله تعالى نسأل الاعانة والتوفيق » . وقد اتم التراجم فيما احسب وكذلك معجم العامية المصرية وهو من المدهشات في التحقيق اللغوي يدل على علم واسع جداً وقد نشر منه نموذجات في مجلة المجمع العلمي العربي في بضع مقالات وربما كان هذا السفر كتابه الخالد لانه صرف فيه اوقاتاً طويلة وجوّد كل الاجادة . ومنها كتابه نوادر المسائل « وكان كلما مرت به مسألة نادرة او حادثة غريبة او توضيح لمشكلة خلال مطالعاته الكثيرة يقيد ذلك في كراسات مع بيان اسماء هذه الكتب المشتملة على هذه النوادر ورقم الصفحة التي احتوتها واجتمع له منها شيء كثير رأى في آخر ايامه ان يرتبه ويضم الشكل الى شكله ويطبع ذلك ويقدمه الى العلماء والباحثين طرفة لم يقدم اليهم مثلها » .

وقال الاستاذ السيد محب الدين الخطيب ان هذا الكتاب هو الأم لمؤلفات تيمور باشا كلها بل هو خلاصة مطالعاته واطلاعاته وسماه معجم الفوائد . وللمترجم له من الآثار التي ألفها عدة رسائل وكتب ومنها البرقيات وهي كلمات تؤدي كل منها معنى جملة كاملة . ومنها رسالة في التصوير عند العرب نشرت في مجلة الهلال ولكن زاد فيها زيادات علمية . ومنها الامثال العامية وهي تجاوز خمسة آلاف مثل عامي . ومنها لعب العرب . ومنها نقد القسم التاريخي لدائرة معارف فريد وجدي وطبقات المهندسين جرى فيه على نسق طبقات الحكماء للقفطي وطبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة . ومنها ذيل طبقات الاطباء . كان يجمع مواده ويكتب مذكرات من مصادره ولانظنه تمكن من إتمامه (مجلة الزهراء م٥ ج ٧ – ٨ ص ٥٦٥) .

ومن رسائله التي لم تطبع : الآثار النبوية ، ومفتاح الخزانة البغدادي وهي ثلاثة عشر فهرساً ، ومما طبعه رسالة في اليزيدية وأخرى في حدوث المذاهب الاربعة وثالثة في تاريخ العلم العثماني ورابعة في قبر السيوطي وخامسة في تصحيح لسان العرب وسادسة في تصحيح قاموس المحيط وسابعة في ابي العلاء المعري وعقيدته وثامنة في الحلقة المفقودة من تاريخ مصر . ومن أهم ماعاقه عن نشر كثير من تآليفه ميله الى التحقيق واشباع الموضوعات حقها او تحاميه احياناً من الدخول في مآزق لا تسمح له تربيته بالتورط فيها . فقد كتب بشأن رسالة التصوير مانصه : « اما التصوير فكنت كتبت مقالة عنه عند العرب في الهلال

(٢٧ — ٥١٣ — ٦٠١) وربما كان فيها مايفيد كم ولكن هذه المقالة أصبحت لاشيءَ جنب ما جمعته بعد ذلك في رسالة خاصة أتممتها وأعددتها للطبع تمنعني من طبعها الآن ان ذكر العرب حتى نبيهم عليه الصلاة والسلام بخير أصبح معدوداً عند عامتنا ومن على شاكلتهم عنواناً لبغض الكمالين فأخرت الطبع خوفاً من الإهانة . وقد اطلع على هذه الرسالة صديقنا الاستاذ جر يفيني فأعجبته وشدَّد عليَّ في سرعة اظهارها فذكرت له عذري في تركها الآن » . اما مقالاته التي نشرها في الصحف والمجلات في موضوعات علمية وأدبية وتاريخية ولغوية فانها لو جمعت لجاء منها مجلدان لطيفان نافعان . فعسى ان تصح همة نجليه الفاضلين اسماعيل بك ومحمود بك على ان ينشرا ماخلف الفقيد العظيم من نفثاته وتحقيقاته خدمة للعلم وتخليداً لذكره في العالمين .

تعصبه للاسلام والعربية

كان احمد تيمور متعصباً للعرب والعربية والاسلام ، يهتم لذلك اهتمامه لأقدس شيء لديه ، وكان اذا شمَّ من بعيد رائحة من شخص يريد السوء بمقدساته هذه او يكتب فيها كتابات بعيدة عن مواطن الحقيقة، يستعديه و يبتعد عنه ، و يتألم في باطنه منه ، ولما شاعت دعوة انصار القديم والحديث في مصر ، آلى على نفسه ان لايطالع من الصحف الا جريدة الاخبار للمرحوم امين الرافعي لان صاحبها متدين يدافع عن الاسلام والمسلمين، فلايقرأ فيها ماتنقبض له نفسه مع انه من أوسع الناس صدراً . وكتب في هذا الشأن يوم (١ جمادى الاولى ١٣٤٦) : « ومن نكد الايام اني لم أزل ممنوعاً من المطالعة والاشتغال بأمر الاطباء حتى ضاقت الدنيا في وجهي وساءت اخلاقي لاني لم اتعود الجلوس في الملاهي ولا أدري كيف أقضي اوقاتي مع هذا الحجر، وقد منعوني ايضاً من مطالعة الجرائد التي لاتروق لي خطتها ولاتتفق مع مشربي فصرت أقتصر على مطالعة جريدة الاخبار لانها توافقني ولاسيما في المدافعة عن الاسلام والانتصار له ومقاومة الالحاد المعبر عنه في لسان هذا العصر بالجمود اوالرجعية ولاحول ولاقوة الا بالله » .

ولما تعرض بعض اصدقائه للنيل من المأمون (واسطة عقد الخلفاء وفخر الامة العربية) اخذ يعالجه بالوسائط المتنوعة كما يعالج الطبيب المريض حتى اعتدل وعاد للانتصار للعرب

ومدنيتهم « فكتب نبذة في الاهرام نعى في آخرها ان يعيد سيرته الاولى التي لم ينل شهرته الا بها » . وله مع صديقه هذا مناقشات في الصحف والمجالس لانه يبرر عمل الكماليين في نزع الخلافة مما لا يتسع له هذا المقام . وكان غضب تيمور من صديقه هذا مما لا يستكثر من غيور على الاحتفاظ بمقدسات أمته . ولما ألف الاستاذ علي بك عبد الرازق كتابه في الاسلام واصول الحكم خالفه تيمور في اجتهاده وتألم لما كتب ألماً شديداً . وكتب لي يصف هذه الفتنة ويستحسن أقوال من ناقشوا المؤلف في موضوعه . ولما رأى انني تصديت لنقد كتب بعض انصار التجدد في مجلة المجمع العلمي طرب واغتبط ، وتألم لما قرأ تقريظاً لي لبعض نبغائهم ، ولكن ادبه حال دون التصريح بذلك .

كتب مرة (٢ شعبان ١٣٤٣) : « واني من رأيكم في اقتدار الشيخ ... وجودة أسلوبه وعدم الموافقة على بعض آرائه المتطرفة وخصوصاً عن العرب وآدابهم فانه كثير الغض منهم في كل شيء ، ومن دواعي الأسف ان هذه الآراء السخيفة تنتشر اليوم بسرعة بين الناشئة حتى صار من المضحكات عندهم التحدث ببلاغة القرآن او بفضل العرب انا لله وانا اليه راجعون . وسيدي حفظه الله أعرف مني وأسد رأياً في أسلوب الرجل وغاية ما يظهر لي مع إعجابي به كثرة التكرار في بعض المواضع والظاهر انه يتعمده لانه يستحسنه و يظن انه طريقة جديدة تروق للقراء ...... » . بل ان احمد تيمور كان يتألم لاقل من هذا اذا كان فيه العبث بمشخصات الامة ، فقد جاء في رسالة في (٢٠ آذار ١٩٢٤) : « لما كانت لجنة عمل الدستور مجتمعة في العام الماضي وشاع انها ستسمي المجلسين بالبرلمان قدم لها بعض الفضلاء ومنهم الاستاذ الشيخ احمد الاسكندري عضو مجمعنا اقتراحاً بتسميتهما بدار الندوة فعارض بعض اعضائها في ذلك وكان المشايخ المعممون منهم أشد معارضة وعلى هذا سمي اكبر مظهر من مظاهر استقلالنا باسم اعجمي مع وجود الاسم العربي عند العرب من زمن الجاهلية ولله الامر من قبل ومن بعد » .

عطفه على من يعطف على العربية

ولقد كانت على تعصبه لامته ودينه وقوميته وعربيته متساهلاً مع من يخالفونه في معتقده . ولطالما خرج أمثالنا من مجلسه وبما رأوا من عنايته بهم ، خصوصاً اذا كانوا

من المشتغلين بالعلم والادب ، ما اطلق السنهم بشكره ، وعقد قلوبهم على حبه ، واورثهم حسن الظن بهدى دينه وتاريخ أمته ، وايقنوا ان الرجل قد يتعصب لمتخصصاته ولكنه يريد الخير كله لمن يوافقونه من بعض الوجوه على ما تشبعت به نفسه و يحكموا على مايرون بالمعقول والمنطق . ولقد اقترح على المجمع العلمي ان يضم اليه الاستاذ اسعد داغر لانه خدم اللغة العربية . وشق عليه ما نال الاستاذ الاب انستاس ماري الكرملي يوم غضب عليه رؤساؤه في ديره ببغداد وقضوا عليه ان يذهب للاعتكاف في دير لهم في جبل الكرمل متخلياً عن كتبه وتآليفه ، وسعى للافراج عنه ليرجع الى بلاده وحتى لاتحرم اللغة نفثات قلمه ولا سيما من معجمه الفرنسي العربي الذي اقام على تأليفه زهاء ثلاثين سنة . واودعه من الفصيح كلمات كثيرة نحن في اشد حاجة اليها ، ساءه لما حل بصديقه (لما كان لهذا العلامة من الآثار النافعة في اللغة) . ولقد خدم الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف انواع الخدم العلمية لانه ايقن انه يخدم اللغة العربية بابحاثه . وكل من يخدم اللغة والعلم هو حبيبه . ولقد اعجب مرة بمقالة للاستاذ انيس سلوم في التعريب نشرت في مجلة المجمع فكتب في (٢٥ صفر ١٣٤١) « فاني ماكدت آتي عليها حتى علمت ان للعربية انصاراً وان قل عديدهم وان لطف الله لم يزل حافاً بهذه اللغة بعد ان كنت في يأس عظم من انهاضها لا ارى فيها الا استجابة دعوة جرول في قوله لامه :

جزاك الله شراً من عجوز ولقيت العقوق من البنينا

كما رآها من قبلي ابو العلاء في الدنيا ... » .

كتبت اليه مرة اوصيه باحد اصدقائي من رجال فرنسا الاستاذ المستشرق السيد اميل بهات وكان يريد ان يزور الازهر ويتعرف الى القاهرة من طريق المسالمين لا السياسيين فأدهشه ما اطلعه عليه ومن عرفه اليهم من رجال العلم وماأغدق عليه من ضروب الاكرام حتى جاوز كلام صديقي بعد انقلابه الى بلاده في شكر احمد تيمور حداً عجيباً وبهذه العناية بالموصى عليه و بامثاله من ابناء الشرق وابناء الغرب ابان فضل مصر وفضل ابنائها على العلم ، وبلوغهم درجة عالية من الحضارة والثقافة ، و بالتالي اورث بعمله حسن الظن بالمسلمين عامة والشرق خاصة . وهذه هي الوطنية الحقة ولو كثر هذا العدد من دعاتنا على هذا النحو ، لتعريف الغرب بفضل الشرق ، لما اساء بعض الغربيين

الظن بنا وبمجتمعنا ولما صغروا من شأن مدنيتنا في الغالب تصغيراً قائماً على الهوى والجهل معاً .

آخرة المترجم

قلّ أن تمت لسعيد سعادته ، وبينا كانت السعادة ترفرف ظلالها على دار احمد تيمور ، وقد تزوج من امرأة فاضلة وهي كريمة المرحوم احمد رشيد باشا احد وزراء مصر فولدت له ثلاثة أولاد اسماعيل ومحمد ومحمود فتعلقت ارادة المولى ان يفقد زوجته وهو في التاسعة والعشرين من عمره (ولد سنة ١٢٨٨ ﻫ وتوفيت زوجته سنة ١٣١٧) فلم يرض ان يتزوج ثانية وقال لي وانا أحثه على الزواج : المسألة معقدة من وجهين الاولى انه يتعذر وجود زوجة تشبه أم الاولاد بعقلها وأدبها وصيانتها ، والثانية انني أخاف على اولادي من خالة تنغص عليهم عيشهم . وكان كما أراد فعاش أرمل متبتلاً ومثال الوقار والصون والعفاف .

وكان المترجم متديناً تديناً حقيقياً ولم يعرف عنه انه ترك صلاةً ولا صوماً ، وحج مرة كما زار اوربا مرة وزار الشام مرة والاستانة مرة ، وكان القرآن يتلى ابداً في داره وفي عزبته وفي ذهبيته وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والحكماء تردد في ناديه ولم يعهد ان غشيه أرباب المساخر والملاهي اومال يوماً الى مصاحبتهم ، بل كانت اوقات فراغه كلها مصروفة في الجد يتخللها بعض المزاح المقبول مع خاصة أصحابه وكان اذا اتفق ان ألقى احد المختلفين اليه كلمة هجر يتصام عنها ويلوي وجهه وربما احمر خجلاً كأنه هو الذي قالها . ولو كان حظ خاصة المصريين من الجد حظ هذا الرجل العظيم لبلغت مصر في مدنيتها شوطاً أوسع من الشوط الذي بلغته .

ولقد عني بتربية بنيه التربية الحسنة وعلمهم العلوم العالية لكن أصيب منذ عشر سنين بفقد ثاني أولاده محمد ، وكان من أرق شباب مصر علماً وادباً وجمالاً وكمالاً وجواب تعزيتي له قوله في (١٣ رجب ١٣٣٩) : « فشكراً لسيدي الاخ الاعز على ماتفضل به من مؤاساتي في مصيبتي العظيمة التي هدّت ركني ونغصت عليّ مابقي من ايامي » وكان كما قال لايكاد يتجه بعدها نحو الصحة حتى ينعكس وأصبح اكثر الأحيان من المتشائمين لا المتفائلين

و يزيد ذلك كما تراجعت صحته وأيقن بقرب منيته . كتب (١٩ يوليه ١٩٢٤) : « وقد أشار عليّ طبيبي حينما استدعيته امس بالسفر الى اوربا وعين لي بلدة بالمانيا يقصدها المرضى بالقلب فلم أقبل لاني لا أستصوب السفر الى مثل هذه الديار وانا مصاب بمرض خطير بل أفضل البقاء بين ولدي وأحب ان لا أتعبهما في موتي كما لم اتعبهما في حياتي » .

نعم كان العقد السادس من حياة عظيم العلماء ونابغة المصر بين حياة نغص وغصص ، ومع هذا كان لا يضن بوقته على افادة قاصديه ، ويكلف صحته اكثر من طاقتها لنفع الناس وكان خاصة اصحابه يمتنعون عن مراسلته او زيارته ، لئلا يكلفوه في قضاء الواجب نحوهم ماقد يضر بصحته ، حتى ناداه ربه الى جواره في صبيحة يوم السبت ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٨ (٢٦ ابريل ١٩٣٠) فكان لنعاه في مصر والبلاد العربية وفي مجامع علماء المشرقيات في الغرب رنة أسى وحسرة وذكره الناس بالرحمة وعزى بعضهم بعضاً على فقد رجل الاسلام والعرب . وشمل الحزن عامة الطبقات المفكرة رحمه الله عداد حسناته للعربية والعروبة وانا لله وانا اليه راجعون .

ايها السادة : هذا ما عرفته من حياة صديقي الذي عددت فجيعتي به من اعظم الفاجعات ، وعلم الله انني ماالقيت عليكم من صفاته الا ما ثبت عندي ثبوت الشمس والقمر ، ولم أحاول ان اكتب فيه سطراً الا بعد ان انشأت بعض سورة الحزن عليه ، وعسى ان يسعني عفوكم فتسبلوا ذيل المعذرة على ذكر اسمي ، خلافاً لعادتي ، مقروناً الى اسمه الكريم في هذه المحاضرة ، بيد اني لم أر لي مخلصاً من ذلك ، لان المسألة مسألة ذكريات شخصية لا بد فيها من ذكر الفريقين ، والله يرحمنا و يتولانا بمعونته .

محمد كرد علي

وطن الجاحظ (١)

—«»—

لئن أنبتت (خد العذراء) أبا الطيب المتنبي جبار الشعر على ترادف الايام فأي بقعة من بقاع الارض أنبتت اباعثمان الجاحظ جبار النثر في قديم الدهر وحديثه ٠

يقول كاتب من بلغاء الكتاب الفرنسيين في الشاعر (دي فيني) : لا يقرأ احد شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، فما ألصق هذا القول بالجاحظ نفسه ، كلنا نعرف اسمه ولكن هل نقرأ كلنا كتبه ، هل نعرف حياته على الوجه الذي نريده في عصرنا هذا ٠

ولئن فاتنا ما نريد من هذه المعرفة فلنعمل في استقصاء ما لم يفت ٠

كنت أقرأ وانا أعي هذا الكلام كتاباً يبحث عن (فرجيل Virgile (٢)) شاعر ايطالية ولد هذا الشاعر سنة ٧٠ قبل السيد المسيح فلم يغفل الكلام على القرية التي ولد فيها ، لم يغفل الكلام على محافلها وعلى طيرها وعلى سواقيها وعلى ينابيع مائها وعلى مراعيها وعلى نعاشيبها وقد اوصى الشاعر الرعيان برعي ماشيتهم في منابت عشبها ٠

وللامم الغربية مذاهب بعيدة في الحنين الى الاوطان ، وقد انتخب البرت سيم طوائف من الكلم استنبطها من آثار كتاب الغرب وشعرائه واثبتها في مقال عنوانه : المولد وقع

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ ٠

(٢) فيرجيل بقلم اندره بلبسور (André Bellessot) الصفحة ٣ ٠

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عليه نظري في « المجلة العالمية La revue mondiale » وقد استخرجت من هذا المقال شيئاً من الكلام اذكره على سبيل الايجاز :

لما نفي اوفيد الشاعر اللاتيني الى شواطيء البحر الاسود خرج من دياره وهو يلتفت الى رومة وبوادي وطنه سولمون ويقول : لا ادري اي رونق لهذا الوطن حتى ملك علينا حواسنا فلا نجد سبيلاً الى نسيانه على وجه الدهر .

وكذلك فيرجيل شاعر اللاتينيين ، فانه لم ينس مولده البائس مدينـة مانطو كل حياته ، ولا ذهل هوراس عن بقعة ارضه الباسمة .

قال فنلون في قصيدة له : مهما ضربتُ في مناكب الارض ، فان البقعة التي رزقت فيها الحياة تلذ الاقامة بها وتضحك لي جواؤها اكثر من كل بقعة .

وذكر روسو ايامه التي قضـاها في قرية بواسي على مقربة من جنيف فقالـ :
وما فتئت منذ طويت شرخ الشباب ووخطني الشيب اشعر بان ذكرى بواسي تتوقد في خاطري على حين انسى صوراً غيرها من الذكر وتستقر في حافظتي استقراراً يشتد على تراخي الحقب ، فكنت كمن احس بدنو اجله فطاب السبيل الى الحياة بتذكر اوائلها واصغر حوادث تلك الايام يحلو في عيني لانه من تلك الايام .

وانك لتجد العواطف نفسها في كلام لبرناردن دي سان بيير قال : اني افضل باديتي على سائر البوادي ، ولا اؤثرها لجمالها ولكنني ربيت ونشأت في آفاقها . ما اسعد الذي يعود الى الديار التي جعل كل شيء فيها محبوباً .

ولما عاد الجنرال دي برسول من وقعة روسية وهو مثخن بالجراح رأى مولده فصرخ : انا من اوفيلار ! قربي قبل كل شيء ..

قال لامارتين وقد ذكر وادي ما كونه وهو يحبه حباً جماً : هذا مسكني منذ الصبا ! سلام على ربيعه وصيفه وخريفه وشتائه ، واهاً لي ! تستقبلني تصـاريف الدهر في كل خطوة خطوتها فلم اعد الى هذه الديار الا لانتزه فيها ساعات قلائل فاقبس الشجرات التي غرستها لادفن في ظلالها واصلي في جوار قبر بن يسيراً من الزمن ..

وكتابات اسكندر دوماتنم عن نزاعه الى تربته وتشتمل على وصف جميل لكل مايحس به في عودته الى فيلار كوتره قال في جملة كلام له : دع هذا المولد الذي انشأ في اعماق

قلبي ذكراً ثابتة يجتذبني اليه فكلما دنوت من الموت يشتد هذا الاجتذاب فكأن الطبيعة قد جعلت الانسان يفرح بالبحث عن لحده في ظلال مهده ·

وقال في مقام آخر : صرفت ثلاثين سنة من عمري في العمل والنزاع حتى سلبني الدهر رونق ايامي وشرخ شبابي ومع هذا فاني انبسط الى هذه القرية الصغيرة التي لا يعرفها احد في العالم وقبل وصولي اليها انزل من العربة فاحصي الشجر واجلس الى بعضه فاغمض عيني واتذكر اموراً مضى عليها عشرون سنة وفي جملة هذا الشجر شجرات نزلت مني بمنزلة الاصدقاء القدماء وفي جملتها شجرات غرسها غيري فأمرّ بها ولا ابالي كما امرّ برجال لا اعرفهم ولا تهمني معرفتهم ·

وقال كراسزوسكي البولوني مخاطباً مولده :

ايتها الارض الجميلة التي تحتفظين بذكرانا بعد انقضاء الاجل !

ايتها الارض العذبة التي حنوت علينا في قديم الدهر !

اننا نودع خلطاءنا ونحن نأمل لقاءهم في السماء ، ولكننا اذا ودعناك لا نرى ابداً بعدك ضياءك المحبوبة ، وديارك وجداولك ، وربيعك وصيفك ، وخريفك وشتاءك وسائر ما رسخت صوره في اذهاننا في عنفوان الشباب ·

كيف تكون عنادلك ، وازاهرك وغدواتك وروحاتك ؟

اترحب بنا السماء حتى ننسى من اجلها كل شيء قديم ؟

ومثل هذا الكلام كثير في آثار الافرنجة اجتزيء بالقدر اليسير منه تفادياً من التطويل ·

قرأت هذا كله فقلت في نفسي : ما الذي نعرفه من وطن الجاحظ ما الذي نعرفه من الجاحظ نفسه وهو أذهب أدبائنا شهرة وأبعدهم صيتاً ، هل يتيسر لنا ان نبعث هيأته من مرقده حتى نحيط باسرار عبقريته بحذافيرها ·

مالنا وهذا اليأس فان الفرح بمحادثة رجل مثل الجاحظ بعد ان اتى عليه احد عشر قرناً وهو هادىء في ترابه مطمئن في قراره يكاد ينسينا الالم الذي نألمه في فوات ما فات من جميع امره ·

http://Archivebeta.Sakhrit.com

في سنة اربع عشرة كتب عتبة بن غزوان كتاباً الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب وقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتاشتوا فيه واذا رجعوا من غزوهم لجؤا اليه فكتب اليه عمر ان ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء واكتب اليّ بصفته فكتب الى عمر : اني قد وجدت ارضاً كثيرة القضّة في طرف البر الى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء . ولما وصلت الرسالة الى عمر قال : هذه ارض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب فكتب اليه ان انزلها فنزلها وبنى مسجدها من قصب وبنى دار امارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها : رحبة بني هاشم ، وكانت تسمى الدهناء وفيها السجن والديوان وحمّام الامراء فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان .

ففي هذه الارض التي مصّرت على زمن عمر بن الخطاب ولد الجاحظ وقدموها : البصرة ، واذا قالوا : البصرتان عنوا بقولهم الكوفة والبصرة ، ومن فرط اهتمامنا بالجاحظ لزمنا ان نعرف كل شيء يختص به حتى معنى الارض التي شرب من مائها واكل من طعامها ونشق من نسيمها واستظل بظلها فانبلج من آفاقها نوره ودرج من أفيائها شعوره فكانت لنا مفاخر العرب من هذه البقعة الوهاجة مفخرة نفخر بها على تراخي الاحقاب .

ولقد اهتم الافرنجة بمعاني بقاعهم الاهتمام كله ولم يكن اهتمامهم بمثل هذه الامور على سبيل اللهو او على سبيل العبث وانما رموا في هذه المذاهب مرامي أبعد فان لفهم اشباه هذه المعاني عملاً جليلاً في حمل القلوب على الارتباط باوطانها ، وآخر ماقرأته في هذا الباب مقال عنوانه : سواقي فرنسة (١) ، فليت ان في ادبنا أمثال هذه المقالات التي تنشئ في النفوس محبة الاوطان فبعد ان وصف الكاتب الساقية على وجه عام وأتى على ذكر ما تضمنته من اغار يد وابتسامات وتكلم على رفيف الضحى وعلى عبوس الليل في احفتها ، بعد ان تبسط في هذا الوصف على اساليب شعرية رجع به القول الى الكلام على الساقية

(١) كتاب النزه الأدبية لصاحبه (Remy de gourmont) .

فنفخ فيهـا روحاً واخذ يفسر الاسماء التي أطلقوها على سواقي فرنسة وقد جاءتمـا هذه الاسماء من الامم التي نزلت بفرنسة في القديم من السنين ثم ختم .قاله بهذا الكلام :

هذا آخر عهدي بمناتن سواقينا فلينتني لم أقطع الكلام عليها فاني أجد الماً في قطع هذا الكلام لان الساقية ام الطبيعة ·

* * *

فلنبحث عن معاني البصرة لعل معرفة هذه المعاني تزيد في مقدار اتصالنا بالوطن الذي أخرج للناس أمثال الجاحظ ·

البصرة ومعناها في كلام العرب على ماقال ابن الانباري الارض الغليظة ·

وقال قطرب : البصرة الارض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب ·

وقال غير قطرب : البصرة حجارة رخوة فيها بياض ·

وقال ابن الاعرابي : البصرة حجارة صلاب قال : وانما سميت البصرة لغلظها وشدتها كما تقول : ثوب ذو بصر وسقاء ذو بصر اذا كان شديداً جيداً ·

وذكر الشرقي بن القطامي : ان المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا اليها من بعيد وابصروا الحصا عليهـا فقالوا : ان هذه ارض بصرة يعنون : حصبة ، فسميت بذلك ·

وذكر احمد بن محمد الهمداني حكاية عن محمـد بن شرحبيل بن حسنة انه قال : انما سميت البصرة لان فيها حجارة سوداء صلبة وهي البصرة ·

وقال حمزة بن الحسن الاصبهاني سمعت موبذ بن اسوهشت يقول : البصرة تعريب بس راه لانها كانت ذات طرق كثيرة انشعبت منها الى اماكن مختلفة ·

وفي اللغة اسباب لتسميتها غير هذه فالمجمع عليه ، ان في البصرة معنى الشدة والصلابة فكأنما اوحت الى ابي عثمان صلابة القول وشدة اسره ·

فما الذي ترك الجاحظ لنا من آثار هذه الشـدة ورسوم هذه الصلابة ما الذي تركه لنا من آثار وطنه وهو الذي يقول في الحنين الى الوطن : « وانت لوحولت ساكني الآجام الى الفيافي وساكني السهل الى الجبال وساكني الجبال الى البحار وساكني الوبر الى المدر لأذاب قلوبهم الهم ولأتى عليهم فرط النزاع · وقد قيل : عمر الله البلدان بحب الاوطان

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشيء من اقسامهم اقنع منهم باوطانهم . وقال معاوية في قوم من اليمن رجعوا الى بلادهم بعد ان انزلهم من الشام منزلاً خصيباً وفرض لهم في شؤون العطاء : يصلون اوطانهم بقطيعة انفسهم ، وقال الله عز وجل : ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليلاً منهم . فقرن الضن بالاوطان الى الضن بمهج النفوس » .

فان الذي يقول مثل هذا القول و يشعر مثل هذا الشعور انما هو عالم بمنزلة الوطن من القلوب فلننظر في مقدار حنين الجاحظ الى وطنه ، ماهي الآثار التي خلفها لنا من هذا الحنين ، ماهي طبيعة هذه الآثار .

نظر الجاحظ الى عيوب تربته ولم ينظر الى فضائلها فقال :

« من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لانهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات ولذلك سميت الرعناء فقال الفرزدق :

لولا ابو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا »

لم ينظر الجاحظ الى تربته نظرة شاعر مولع بالوان هذه التربة كلف بمشاهد طبيعتها وانما نظر اليها نظرة العالم الذي يريد ان يبحث عن اصل كل شيء حتى يعرف المورد والمصدر والمدخل والمخرج وهذا من خصائص عبقريته ومن طبيعة عقله . ولقد تجلت هذه الخصائص وهذه الطبيعة في كلامه على اعجوبات البصرة قال :

بالبصرة ثلاث اعجوبات ليس في غيرها من البلدان منها ان عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد فيقبل عند حاجتهم اليه و يرتد عند استغنائهم عنه ثم لا يبطئ عنها الا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها لايقتلها عطشاً ولا غرقاً ولا يغبها ظمأ ولا عطشاً يجيء على حساب معلوم وتدبير منظوم وحدود ثابتة وعادة قائمة يزيدها القمر في امتلائه كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على اهل الغلات يتخلفون ومتى يذهبون و يرجعون بعد ان يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر فهي آية واعجوبة ومفخر واحدوثة لا يخافون المحل ولا يخشون الحطمة . والاعجوبة الثانية ادعاء اهل انطاكية واهل حمص وجميع بلاد الفراعنة الطلسمات وهي بدون ما لاهل البصرة وذاك ان لو

التمست في جميع بيادرها وربطها المعودة وغيرها على نخلها في جميع معاصر دبسها ان تصيب ذبابة واحدة لما وجدتها الا في الفرط ولوان معصرة دون الغيظ اوتمرة منبوذة دون المسناة لما استبقيتها من كثرة الذبان .

والاعجوبة الثالثة ان الغربان القواطع في الخريف يجيء منها ما يسود جميع نخل البصرة واشجارها حتى لا يرى غصن واحد الا وقد تأطر بكثرة ما عليه منهـا ولا كربة غليظة الا وقد كادت ان تندق لكثرة ما ركبها منها ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط الا على نخلة مصرومة ولم يبق منهـا عذق واحد ، ومناقير الغربان معـاول وتمر الاعذاق في ذلك الابان غير متماسك فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كل عذق منها بنقرة واحدة حتى لم يبق عليها الا اليسير ثم هي في ذلك تنتظر ان تصرم فاذا اتى الصرام على آخرها عذقاً رأيتهـا سوداء ثم تخللت اصول الكرب فلا تدع حشفة الا استخرجتها فسبحان من قدر لهم ذلك وارام هذه الاعجوبة . »

من هذا كله يتبين لنا ان الجاحظ في الحنين الى الوطن انما ينظر الى بقعة ارضه نظرة العالم المدقق على ان قلبه لم يخل من نزاع الى وطنه وانما ذهب في هذا النزاع مذهباً بعيداً فجاز من وطنه الاصغر الى وطنه الاكبر فمن بعض كلامه :

« وانا اقول في هـذا قولاً وارجو ان يكون مرضياً ولم اقل : أرجو ، لاني اعلم فيه خللاً ولكني اخذت بآداب وجوه اهل دعوتي وملتي ولغتي وجز يرتي وجيرتي وهم العرب » .

اني ارى في هذه الكلمات عروبية واضحة ووطنية صادقة فمااعذب قوله : ملتي ولغتي وجز يرتي وجيرتي ! وما اعذب هذه الياآت كلهـا ! فانهـا تدل على ولع صاحبها بقومه وكلفه بوطنه ولهجه بلغته اني ارى فيها صورة الرجل الذي جعل من جز يرة العرب ومن لغتهم ملكاً خاصاً به يرتبط بهما قلبه ولسانه .

ومع هذا كله لم يصور لنا الجاحظ وطنه فاذا اردنا ان نعرف شيئاً من صورة البصرة في القديم لزمنا ان نستعين بغير الجاحظ .

فمن الذين وصفوا البصرة خالد بن صفوان ، وصفها لعبد الملك بن مروان فقال : يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم ويجيء هذا بالظبي والظليم ونحن اكثر الناس

عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً و برذوناً هملاجاً وخريدة مغنـاجاً بيوتنا الذهب ونهرنا العجب اوله الرطب واوسطه العنب وآخره القصب فاما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته هذا على افنانه كذاك على اغصانه هذا في زمانه كذاك في ابانه من الراسخات في الوحل المطعمات في المحل الملقحات بالفحل يخرجن اسفاطاً عظاماً واوساطاً ضخاماً وفي رواية يخرجن اسفاطاً واوساطاً كأنما ملئت رياطاً ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الابيض ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الاخضر ثم تصير بالوناً احمر واصفر ثم تصير عسلاً في شنة من سحاء ليست بقربة ولا إناء حولها المذاب ودونها الحراب لا يقربها الذباب مرفوعة عن التراب ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال يستعان به على العيال ٠

واما نهرنا العجب فان الماء يقبل عنقاً فيفيض مندفقاً فيغسل غثها و يبدي مبثها يأتينا في اوان عطشنا و يذهب في زمان ريّنا فنأخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فرشنا فيقبل الماء وله عباب وازدياد ولا يحجبنا عنه حجاب ولا تغلق دونه الابواب ولا يتنافس فيه من قلة ولا يحبس عنا من علة ٠

واما بيوتنا الذهب فان لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور نأخذه في اوقاته ويسلمه الله تعالى من آفاته وننفقه في مرضاته » ٠

ليت هذا الوصف قد جرى به قلم الجاحظ نفسه واظن اننا لا حاجة بنا من بعده الى معرفة شيء من صورة البصرة وانما يلزمنا ان نعرف ان في البصرة نشأ النصيب الاوفى من عبقرية العرب فكان لهذه البقعة من شعر العرب ولغتهم وادبهم ونحوهم الحظ الاوفر فلا نذكر البصرة الا تمثل لنا بشار بن برد والسيد الحميري ومسلم الخاسر وحسين بن الضحاك وصالح بن القدوس والرقاشي والرياشي وغيرهم من الشعراء على اختلاف طبقاتهم واي تربة افضل من تربة سقى ماؤها وغذى هواؤها وادفأت شمسها رجالاً تبسط سلطانهم في عالم الطبيعة وفي عالم العاطفة فكان للطبيعة وللعاطفة من شعرهم مرآة مصقولة الجوانب مرة تعكس لنا اشكال الالوان على تباين كدرتها وصفائها ومرة تمثل لنا صور العاطفة على اختلاف دقائقها ٠

ولا نذكر البصرة الا تخيل لنا الاصمعي وابو زيد الانصاري وخلف الاحمر والخليل

ابن احمد والنضر بن شميل وقطرب وغيرهم من المحافظين على لغة العرب المرامين دون حياضها واذا قلنا : لغة العرب تصورت لنا هذه المادة التي اعانتهم على الافصاح عن نتائج عاطفتهم وشعورهم وعن ثمرات خواطرهم وعن مذاهب حضارتهم وعمرانهم وعن اساليب سياستهم وسيرتهم فكان في هذه الالفاظ المجموعة في كتاب واحد صورة ناطقة تعرب لنا عن ظواهر العرب وبواطنهم ·

وفي البصرة نشأ سيبويه والمازني والى البصرة ينتمي المبرد وابن دريد فمن هذا كله يظهر لكم ان معظم عبقرية العرب في الكوفتين فاذا نبتت على ضفاف بردى عظمة العرب وما اشتملت عليه هذه العظمة من منازع قومية فعلى ضفاف الرافدين دجلة والفرات طلع فكر العرب وشعورهم وللجاحظ نصيب غير يسير من هذا الفكر ومن هذا الشعور ·

دمشق : في ٢٠ كانون الاول ١٩٣٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ادبنا القومي
- ٣ -

بين القديم والجديد

ابتدأ الشعور الصادق بازمة اللغة العربية في مصر من يوم دلفت اليها علوم الغرب الحديثة على يدي محمد علي الكبير . ولقد حدثتك في مقال سابق انه استعان على الترجمة بين اساتذة الطب الغربيين وبين طلبتهم من المصريين اوالمتمصرين بجماعة من النازحين الى مصر من المغاربة ومن بلاد الشرق القريب ، فكانوا يؤدون الى هؤلاء بالعربية او بما يشبه العربية مايلقيه اولئك باللغات الغريبة . فكان هذا اول مجهود بذل في هذا الباب . واذا لم يكن قد انتج كثيراً ، اولم يجر على وجه الدقة فالعذر لهؤلاء السابقين قائم ، وسعيهم مشكور على كل حال .

وظلت الحال على هذا الى ان عاد من الغرب رفاعة وقرناؤه ، واتسعت رقعة العلم الحديث في مصر بما اقيم من المدارس في فنون الحياة المختلفة ، وقويت الحاجة الى التماس صيغ العربية ومفرداتها تؤدي بها علوم العصر الحديث . فلم يتعاظمهم الامر ولم يخذل من عزائمهم ، بل لقد جرّدوا هماً تتزلزل الجبال ولاتتزلزل ، فأقبلوا على معاجم اللغة وجعلوا ينفضون منها كل لفظة تؤدي معنى مما بين ايديهم ، كما أقبلوا على الكتب العربية في العلوم والفنون المختلفة مؤلفة ، ومترجمة عن اليونانية وغيرها ، فاستخرجوا منها شتى المصطلحات الفنية وأطلقوها على ماوقع لهم من المصطلحات في اللغات الاجنبية . فاذا قام لهم بعد هذا جديد من المعاني في لغات الغرب فلم يجدوا له من قديم صيغ العربية مايترجم عنه عاذوا بالتعريب . فعمدوا الى الكلمة الاجنبية فأطلقوها بعد ان يهذبوها بمايسيغها في لسان

العربية . وبعد ان كان الامر في صدر النهضة مقصوراً على الترجمة فقد شمر العلماء المصريون للتأليف فأخرجوا من الكتب والرسائل مؤلفة ومعربة مالا يحصى كثرة في الطب والهندسة والحساب والفلك والطب البيطري والزراعة والتعدين وغيرها مما زخرت به العربية على الرغم مما كان يشوبه من المعرب والدخيل والركيك . والا فكيف كانت الحيلة في أداء علوم الحياة للمصريين ؟ ما احسب احداً يزعم ان الواجب عليهم كان ان يتربصوا بالعلم حتى يأذن الله فيخرج لهم من خالص العربية مايدل على كل ما كان وما سوف يكون .

ولعل الحرج السياسي في مصر في مؤخرات عهد اسماعيل ، ثم في تهيؤ البلاد للفتنة في عهد توفيق قد خذل من قوائم هذه النهضة « اللغوية العملية » وان لم يخذل في النهضة الادبية ثم كانت القارعة الكبرى بالاحتلال الانجليزي ، ثم تعمد المسيطرين منهم على التعليم بسط العلوم على التلاميذ باللغة الانجليزية . ولا يذهب عنك ان ادامة هذا السنين الطوال قد كاد يقطع ، ثانياً ، الصلة بين العربية ومصطلحات العلوم الكونية : ولسوء حظ العربية لقد كانت هذه الفترة هي اشد فترات التاريخ ازدحاماً بمخترعات الغرب ومستكشفاته في مرافق الحياة . وما زال يرشقنا كل يوم منها بما لا نجد عنه منصرفاً ولا محيداً ، ولا نجد لغتنا عليه مسعداً ولا معيناً !

على انه من جيل مضى قد تعاظم هذا الخطب جماعة العلماء والمتأدبين فانبعثت له طائفة من ائمة اللغة واعلام البيان واقبلوا على كتب اللغة ينكثونها نكثاً ليصيبوا بها ما يمطرنا به العلم الحديث ، فجدوا اشهراً او اياماً ، ولا ادري ما الذي فرق عزائمهم ، فسرعان ما انقبضوا بعد ان اخرجوا بضع عشرة كلمة سار أقلها ومات سائرها ، ولا حول ولا قوة الا بالله !

ثم ان جهوداً فردية ظلت مرسلة ، انتج بعضها كثيراً ، وانتج بعضها قليلا . الا انها بكثيرها وقليلها لا تغني في هذا الباب كثيراً !

وعلى ذكر هذه الجهود أحيي بأطيب التحيات وازكاها ذكرى استاذنا الاعظم العالم اللغوي الاديب الشاعر الكاتب حفني بك ناصف عليه رحمة الله . فانني لا أعرف في هذه البلاد من جمع بين خدمة العلم وخدمة الادب وخدمة اللغة ، وخاصة من الجهة العملية مثل حفني ناصف . ويدوم على هذا طوال السنين لا زهو ولا استكبار ، بل انه لتواضع

ARCHIVE
http://Archivebeta.S

يشبه الانكـار . وهكذا العلماء لا المتعالمون !

إذن لم يغن كل ما بذل العهد الاخير في مطالب العلم الحديث عند لغة العرب . وكيف الحيلة في هذا الخطب الجسام : ان البلاد تريد ان تتعلم ، وتريد ان تتعلم بلغتها لغة العرب ، وفي الحق انهـا اذا لم ترد هذا فقد خطت بيدها قبراً لا انبعاث لها منه الى غاية الزمان .

وهنـا اذكر لامام الصحفيين المرحوم السيد علي يوسف حكمة له مأثورة : « ان من يعلم الامة بلغتها فانه ينقل العلم اليها . اما من يعلمها بغير لغتها فانه ينقل أفراداً منهـا الى العلم » . ونحن المصريين بحمد الله اشد أنفة واوسع في الحياة مطلباً واعز مطمحاً من ان نقنع بان ينقل افراد منا الى العلم !

وإذن لا بد من حل ، وهذا الحل لا يمكن ان يكون الا باتخاذ احدى طريقتين لاثالث لها : اما العياذ بالنحت والتعريب وما اليهما من الوسائل الى مط اللغـات حتى تصيب طرائف المعاني . واما الالتجاء الى التعريب بعد صقل الالفاظ الاجنبية وتسويتها حتى تستقيم اللهجة العربية . وذهب قوم من افاضل العلماء الى هذا ، وخالفهم جماعة من أندادهم الى ذاك . ومن ذلك اليوم نشأ في هذه البلاد مايدعى بالقديم والجديد ، ونجم من يدعون أنصار القديم ومن يدعون أنصار التجديد .

نعم ، لقد اتسع بعد هذا معنى القديم ومعنى الجديد اذ اصبح الى تناوله فقه اللغـة . يتناول الادب في تصرفه واساليبه ومطالبه والغاية منه وغيرذلك ، ولهذا شيعة وانصار ، ولهذا شيعة وانصار ، واننا لنعود الى هذا الموضوع بعد اذ نفرغ مما اخذنا فيه من هذا التاريخ لكيلا تختلط الموضوعات ويختل نظم الكلام .

اسلفت عليك ان الخلاف قد انبعث بين من يقولون بالاجتزاء بالنحت والاشتقـاق وما اليهما ، وبين من يذهبون الى التعريب . وقامت المناظرات بين الفريقين ، وعقدت المحافل لشهود الجدل والحوار . فكانت اظهر حجة لهؤلاء ان اللغة العربية قد انقبضت من مئات السنين عن اسباب الحضارة ، ولم تشهد هذه العلوم الحديثة ولا عهد لها بهـذه الوسائل التي يطلع علينا الغرب بها كل حين . فليس من المعقول ان نصيب فيها ما يغني في كل ذلك .

ومن المسلم بهاننا في علومنا واسبابنا في الحياة انما نعيش عيالاً على الغرب وعنه نأخذ ، ومنه نستمد وبه نقتدي فلا محيص لنا عن التعريب . على اننا لا نكون مبتدعين اذانحن عمدنا الى التعريب . فلقد اضطر اليه سلفنا العظام في انضر عصور اللغة العربية وازكى ايامها، اضطروا اليه في صميم العصر العباسي حين ان بدؤا على نقل علوم اليونان وآداب الفرس الى لغة الكتاب العزيز ، ولست تشق كتاباً ترجم او ألف في ذلك العهد في منطق او فلسفة او طب او هندسة او فلك او غيرها ، الا رأيته قد سلك ، في كثير من المواضع ، سبيل التعريب .

وأبلغ من هذا ان العرب في جاهليتهم على غنى لغتهم الهائل وعلى انهم كانوا أجهل خلق الله بالعلوم والفنون ، لم يتحرجوا من ان يقترضوا كثيراً من الالفاظ الفارسية والحبشية ويطلقوها في صميم العربية .

وكان من أبلغ حجج الآخرين ان التعريب لايجوز الا للعرب . فهم وحدهم الذين يملكون ان يدخلوا في لغتهم ماشاؤا وان ينفوا عنها ماأرادوا . فكل دخيل بعدهم لايمكن ان يقال انه من لغة العرب .

على ان السابقين في العصر العباسي وما وليه اذا كانوا قد اضطروا في سبيل الترجمة عن بعض مصطلحات العلوم الى ايراد كلمات اجنبية فما كان ذلك ليدخلها في لغة العرب ، بل انها مازالت تعتبر من لغى أجنبية .

ثم ان العباسيين قد استطاعوا ان يترجموا بالعربية الصحيحة الخالصة علوم اليونان ، وبديه ان وقوع طائفة يسيرة من المصطلحات الأعجمية فيها لايخرجها عن عربيتها . اما نحن فاذا طرقنا اليوم هذا الباب فسنجد في كل عشر كلمات واحدة عربية وتسعة معربة ، او على الصحيح اعجمية ، اما لانه ليس في لغة العرب مايدل على المعنى الحديث ، واما باستسهال الناس للتعريب عن طول المراجعة والتنقيب ، وفي هذا القضاء كله على لغة الكتاب الكريم .

ويرى هذا الفريق من العلماء ان في ابواب النحت والاشتقاق والتجوز متسعاً لكل ما يعرض لنا من معنى حديث وزادوا على هذا انه اذا نعست لغة العرب عن اداء معنى طريف بعد ان نفر كل تلك الابواب ، وتنفد الحيل والوسائل ، فواجب ان يلجأ الى مجفوات

اللغة وما لم يعد يستعمل من مفرداتها فيطلق على ذلك المعنى ، وبذلك تؤدي الغرض من جهة ، وتبعث ميت العربية من جهة اخرى .

ثم يحتدم الجدال ، ويستعر الطعن والقتال ثم اذا الزمن بكر ، واذا الليالي تفر ، واذا اللغة في انقباضها ، واذا المعاني الحديثة ما زالت في اضطرادها ، لا نستدر كها على رأي انصار القديم ، ولا نلحقها على رأي اصحاب الجديد .

وقبل ان نجوز هذا الموضع يجب ان نشيد بأثرين كريمين كان لهما حظ في انعاش اللغة العربية بقدر محمود . اولهما ، انه لما ولي المغفور له سعد زغلول باشا وزارة المعارف تقدم بتدريس العلوم المختلفة باللغة العربية ، فنشطت العزائم ، وتضافرت الهمم على النقل ما يترجم من صميم العربية عن مطالب تلك العلوم . وكان من مقتضيات هذه النهضة ان أنشئ في وزارة المعارف قلم للترجمة العلمية ، فاخرج في مختلف العلوم كتباً غير يسيرة اذا اعوز بعضها الدقة في حسن الاداء ، فلقد كان لها نفعها على كل حال .

والثاني انه لما تقلد المغفور له احمد حشمت باشا هذه الوزارة والى سعي سلفه العظيم والقبل على تشجيع تلك النهضة بتقريب علماء اللغة واذكاء هممهم ، وشق طرائق العمل لهم وبادر فألف لجنة دعيت (لجنة الاصلاحات العربية) يتولى رياستها وزير المعارف ووكالتها وكيلها ، ودعا الى عضويتها جماعة من خيرة العلماء : اسماعيل حسنين باشا ، احمد زكي باشا ، حفني ناصف بك ، اسماعيل رأفت بك . الشيخ احمد السكندري وغيرهم .

ولولا حب الجدل ، الذي ابتلينا به نحن المصريين ، لآتت هذه اللجنة اجل الثمار ؛ على انها برغم ذلك قد حققت كثيراً من الاعلام والمصطلحات الجغرافية مازالت يؤخذ بها في التعليم الى الآن .

ثم فترت هذه الفورة بعد اعتزال حشمت باشا وزارة المعارف وجرى على تلك اللجنة القضاء المحتوم .

* * *

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

« المجمع اللغوي

ادرك اهل العلم ثانياً ان جهود الافراد لا تغني في هذا الحدث كثيراً ، لان الواقع دل على ذلك اولاً ، ولأن عمل الفرد في مثل هذا لا يُكفَل له الضبط والدقة الواجبان ثانياً ، ولان اثر الفرد لا يلتزم به المجموع ثالثاً ، فتكون النتيجة نتيجة الارتكان على الجهود الفردية ان تختلف الدلالات على المعنى الواحد ، سواء في الالفاظ المفردة او في الصيغ المحبوكة .

ومن هنا التفتت النيات الى وجوب عقد مجمع لغوي يضم اليه افذاذ العلماء واللغويين وكبار الادباء من الشعراء والنقدة والكتاب ، حتى يثمر السعي من جهة الدقة والتجويد ، ومن استراحة جمهور المتأدبين اليه واخذهم به في معالجتهم لالوان العلوم والآداب .

ووجهت الدعوة الى صفوة هؤلاء فعلا ، وجهها الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير دار الكتب يومئذ) فلبوا ، واجتمعوا ثم اجتمعوا ، ثم انفضوا لا عن شيء وتفرقوا كل مفرق .

وبعد بضع سنين شبت هذه النية مرة اخرى فدعا صاحب المعطوفة ادريس راغب بك جماعة من صفوة العلماء والادباء الى عقد « مجمع لغوي » ايضاً . فاجتمعوا واشتعبوا لجاناً تتجرد كل واحدة منها لمطلب خاص ، ثم اجتمعوا وانتهى مسعاهم عن اثر يسير ، لا ادري مصيره اليوم ، ثم انفضوا وتمزقوا كل ممزق .

لم يبق بعد كل هذا بد من احالة الامر على الحكومة فالحكومة قوية بمالها ، قوية برجالها ، قوية بقوانينها . ماتأخذها هوادة في بسطها على موظف فاتر كسول وبعبارة أخرى ، لا نجاح « لمجمع لغوي » الا اذا تولته الحكومة فاصبح فرعاً (رسمياً) من فروعها . ولهذا مزية اخرى ، وهي ان الحكومة تستطيع ان تفرض ما يخرجه (المجمع اللغوي) فرضاً في كتب التعليم وفي مكاتباتها (الرسمية) وغير ذلك . وفكر في ذلك الاستاذ علي الشمسي باشا مذ كان وزيراً للمعارف ، واحتفل للامر ايما احتفال ، وراجع فيه الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير الجامعة يومئذ) والاستاذ احمد حافظ عوض بك وثالثاً . وقدم كل منهم الى الوزير تقريره متضمناً المبادئ الاساسية التي ينبغي ان يقوم عليها بناء المجمع والغاية من قيامه ، وطريقة قيامه بمهمته ، على جهة الاجمال لا التفصيل . وجعل الوزير يفكر بعد ذلك ويدبر ، وفي خلال هذا التفكير وهذا التدبير تخلت الوزارة عن الحكم .

وقام على وزارة المعارف بعده الاستاذ احمد لطفي السيد بك فوالى مسماة سلفه ، وجد في الامر ايما جد حتى اتم مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ومشروع ميزانيته على مارواه لي الثقة الصادق ، والعهدة عليه ثم لم يظهر لهذا المجمع «الرسمي» الى الآن (حس ولا خبر) . وهكذا ظلت لغة العرب وحاجة العلم يناشد كل منهما صاحبه قول الشاعر :

أرى ماء وبي ظمأ شديد   ولكن لا سبيل الى الورود

ولقد انتهى اليّ ان هناك ملاحظة قوية قد ارتفعت على مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ذلك بان اللغة العربية ليست ملكاً لمصر بين وحدهم حتى يستأثروا بالتصرف فيهـا ، بل هي ارث مشاع بين جميع الامم التي تنطق (الضاد) . وهيهات ان يكفل لهذا المشروع نجاح الا اذا اشترك فيه مندوبون عن سائر الامم العربية الاخر ، ليجري كل ما يستخرجه المجمع وما يولده على السنة المتكلمين بالعربية في جميع اقطار العالم ولقد يكون لهذا الرأي شيء من الاعتبار بتوحيد جميع الصيغ والدلالات في أقطار العالم العربي ، وان كان هذا برغم الف مجمع ومجمع ، مما يكاد يلحق بالمستحيل . ولكن البحث القائمة بمجمع لغوي مصري بحث خيراً من ألاّ يقام مجمع البتة من اي نوع كان ؟ .

ثم لقد سبقنا اخواننا اهل الشام فأقاموا « لهم مجمعاً علمياً لغوياً » فهل دعونا او دعوا غيرنا من المنتمين للعربية الى الاشتراك فيه ؟ وهل هم منتظرون حتى تبدي الامم العربية الاخرى رأيها فيما هم مخرجون ؟

والحق الذي لا ريب فيه ان مصر اعلى البلاد العربية حضارة واوفرها غنى ، واوسعها علماً وادبا ، فهي حاملة لواء الحضارة في الامم العربية ، وان غيرها ليقتدي بها . ولو انها نهجت في هذا الباب سبيلها لاتبعها غيرها واخذ عنهـا سواها من الامم الناطقة بالعربية .

ثم ماذا يضيرنا نحن اذا خالفنا غيرنا ، في الدلالة على المعاني الحديثة ، الى غير ما نستخرجه من المفردات وما نتواضع عليه من المصطلحات ؟

* * *

وبعد فلقد اوردت عليك موجزاً من تاريخ اللغة العربية من صدر النهضة الحديثة ، ومبلغ نقلها ، وكيفية تصرفها . والجهود التي بذلت في سبيل انبساطها لحاجات العلوم

الكونية . ومن هذا كله ترى ألا ملجأ ولامنجى الا بالاسراع في عقد مجمع لغوي (رسمي) تكفله الحكومة ، و يشد متنه جهرة العلماء والمتأدبين ..

بين القديم والجديد ايضاً

قلت لك في مقالي الماضي انه قد اتسع معنى القديم ومعنى الجديد ، اذ أصبح الى تناوله فقه اللغة ، يتناوله الادب في تصرفه وأساليبه ومطالبه والغاية منه ، وغيرذلك . والواقع ان الخلاف جد واضح في امر فقه اللغة ، فهناك قوم يقولون بالتعريب فيما لا غناء للعربية فيه وقوم لايسيغونه البتة ، بل يذهبون الى معالجة ذلك بالنحت والاشتقاق وما اليهما على ماسلف به التفصيل . اما الخلاف في شأن الادب بين أنصار القديم وأنصار التجديد ، فالحق انه غير واضح المعالم ولا بين الحدود .

نعم ان هناك اختلافاً كبيراً نحسه ونستشعره بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء وهذا الاختلاف لقد يظهر مرة بقدر كبير وقد يظهر مرة بقدر صغير ، فهو من الجهة العملية قائم على كل حال . اما من الجهة النظرية فان احداً لم يتقدم الى الآن بتبيين حدوده واظهار وجوهه وتفصيل مسائله . وبعبارة أخرى : ان احداً من هؤلاء ولا من هؤلاء عبر في صراحة ونصاحة بيان عما يرى ان يكون عليه الادب العربي في هذا العصر الذي نعيش فيه . فان انت ظفرت بشيء من البيان في هذا ، ظفرت به على وجه الاجمال لا على وجه التفصيل . وعلى ذلك فليس من حقنا نحن المحايدين ان ندخل في تفصيل ما طواه اهله وأجمله ذوو الشأن فيه . بل ان كل ما علينا ان نأخذ في الامر كلامنا من الجهة النظرية بالاجمال . اما من الجهة العملية البادية في آثار اصحاب القديم وانصار التجديد ، فهذه من حقنا ان نخوض فيها على جهة التفصيل :

يعيب اصحاب القديم خصومهم بان آداب الافرنج قد غمرت احساسهم وطغت على مشاعرهم فانحرفت ملكاتهم عن الطبع العربي ، فهم اذا نظموا او أرسلوا البيان وان جلوه في لفظ عربي فانه لايستقيم لطبع اللغة ولا يساير كرائم آدابها وبدائع أساليبها : صيغ حائلة ، وجمل ناصلة ، وتراكيب متزايلة ، وأخيلة ناشزة على الطبع ، وتشبيهات نابية عن السمع . وانزلاق الى معان ضريبة لايصلنا بها سبب ، ولا يربطنا بها نسب .

وهيهات ان يكون الادب كذلك أو يكون ذلك من الادب .

ويجيبهم الآخرون : انكم لاتفقهون الادب ، ولاتدركون اثر الادب ، ولاتعرفون الغاية من الادب ، لان كل همكم وهمتكم قد احتبسا على رص الألفاظ وتزيين الصيغ بالتماس ألوان المحسنات البديعية ،مها استهلكتم المعاني في هذا السبيل ، والتجرد في تلقط جملة قديمة او مثل عربي تسوقون ذلك في غير شيء ، وقد تدفعون الكلام اليه دفعاً لتصيبوه وتستكرهوه على نظمه فيما أنتم فيه . فالاصل في الادب عندكم نظم الفاظ وتصيد صيغ وتزويق كلام كائنة ماكانت معانيه ، وواقعة ماوقعت مراميه . اما المعاني واما الاغراض ، واما إرضاء النفس بما يترقرق فيها من الوان الحس ، واما تصوير الجمال وإشعاره الخ فلستم هناك في شيء من ذلكم . وهذا هوالادب لو كنتم تفقهون .

هذه صورة ماانتفض الينا من مناظرات الفريقين (أصحاب القديم وانصار التجديد) اما من الجهة العملية فقد حدثتك في صدر هذا المقال بان الاختلاف بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء لقد يظهر مرة بقدر كبير ، وقد يظهر مرة بقدر صغير والآن ، ونحن بسبيل الابانة عن الخلاف من هذه الجهة ان نعمد الى أطول أقطاره ، وأوسع مراميه لنظهر القارىء على أوضح صوره وأبين مجاليه :

فلان عندنا وفلان وفلان يقرضون الشعر فلا يكادون يأتون به الا بالغريب الشاسي من مفردات اللغة لا يجد الخاصة انفسهم السبيل الى فهمه الا بمراجعة المعاجم .. فاذا سافروا (في اشعارهم) فطريقهم الموامي (الصحاري) وما يترقرق فيها من السراب ، وما يتراءى لهم من الآل ؛ يقطعونها على متون العيس ، وكيف وردت خمساً (بكسر الخاء) او سدساً (بكسر السين) وكيف صنع ذيلها؟ اوضعته عارضة؟ (فتقول ارخى فوقها ستر) ام رفعته شامذة (فتقول رنق فوقها نسر) وكيف حنت النجائب وكيف انت ، ولم تبلغ راكبيها طلبتهم الا بعد ان :

اكل الوجيف لحومها ولحومهم فأتوه انقاضاً على انقاض

فاذا بكوا بكوا الأطلال والاحجار من دوارس الآثار . واذا تعشقوا تعشقوا (بنت معتنق الفوارس في الوغى) واذا واعدوا الحبيبة اللقاء ففي (منعرج اللوى) واذا فاخروا

بالكرم ، فبنحر الجزور لسنامه (شحم كهداب الدمقس المفتل) واذا كاثروا بالشجاعة فاداتهم للطعان (السيف اليماني ، والرمح السمهري ، والقنا الخطي) الخ الخ الخ ٠

اما المتطرفون من اصدقاء الحديث فعندهم (الموت اللازوردي) و (الهيولى الراقدة على سرير الابدية) و (العذاب النائم) و (بالجحيم) و(بالشيطان) و (الشيطان المرتبك في نسيج عنكبوته) الخ مما لا أريد الاطالة فيه إشفاقاً على ذوق القارئ الكريم ٠

هذان مثلان ضربتهما اولهما شديد التطرف في التعصب للقديم ٠ وثانيهما شديد التطرف في عدم المبالاة باللغة في سبيل اصابة معنى حديث ٠

ولا يذهب عنك انه يقع بين هذين الحدين مراتب متعددة ، حتى انك لا تكاد تحس في بعض الآثار فروقاً بين اصحاب القديم وانصار التجديد ٠ ولا ننس ان العلة فيما ترى من هذا التبلبل او شبه التبلبل في الاساليب هي ماشرحته لك في المقال الثاني فراجعه ان شئت وجوه التعليل ٠

وبعد فيم الخلاف في الرأي ، ولم كل هذا الجدل والحوار ؟ لقد يفهم ان يقوم الخلاف جدياً في متن اللغة بين من يقولون بالتعريب ، ومن يحظرون التعريب ٠ وهذه مسألة يجب ترك البت فيها لمجمع لغوي معقود له ثقة العلماء وأئمة اهل البيان ٠ اما الادب وأساليبه وسائر اسبابه فالخلاف عليه لا يزول بالمناظرة ولا بالاقناع ، وانما ينقاص و يزول بحكم الزمان ، وانه الى هذه الغاية لفي بعض الطريق ٠

لا أحسب ان هناك شكاً عند اصحاب القديم او دعاة التجديد في ان الأدب في كل لغة وعند كل أمة كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة ما يجري على سائر هذه الكائنات فهو ينمو ويهزل ، وهو يطول و يقصر ، وهو يشتد و يضعف ، وهو ينبسط و ينقبض ، وهو يجود و يخبث ، وهو يتشكل و يتلون ٠ يتأثر في كل هذا بما يدخل عليه من العوامل وما يحيط به من الاسباب والملابسات ٠

ثم اذا كانت ابلغ مظاهر الادب هي الترجمة عما يعتلج في النفس من العواطف ، و يتنازى فيها من الوان الاحساس ، وما يتعلق به الذهن من فنون الاخيلة ، فلا بد للأدب على هذا من ان يتلون ، ولا بد له ان يتطور ٠

واعلم وفقنا الله جميعاً للسداد ان اهل العلم اجمعوا على انه مامن صورة يبتدعها الذهن

او خيال يتراءى للوهم الا وهو منتزع من امر واقع مستمد من حقيقة ثابتة . وانك مهما تمثلت لنفسك من الصور ، وتجاوز المعقول ، وطرت من الأخيلة مالحق بالمستحيل ، فلست بمستطيع ان تجاوز في شيء من ذلك الواقع ، ولا ان تخرج عن دائرة المحسوس ، وانما كل شأنك فيما تتصور او تخيل انك ملفق صورك وأخيلتك من الواقع المحسوس ، انك تستطيع ان تتصور جبلاً من اللؤلؤ وبحراً من الزئبق وانساناً من الخشب وطائراً من الذهب ، فهل تراك في هذا جئت بشيء من العدم ، كلا فالجبل موجود واللؤلؤ موجود والبحر موجود والزئبق موجود الخ ، فكل ماصنعت انك لفقت من الحقائق الواقعة لحسك فأخذت من الجبل جرمه ، واستعرت اللؤلؤ لجوهره وهكذا ، وكيف يتهيأ للذهن انسان ان يتمثل اشياء ، لم تقدر في الخلق ولم يقع عليها حس ؟ ذلك المستحيل .

ولقد ترجم العرب عن احساسهم أصدق الترجمة ، وصوروا عواطفهم ابدع تصوير ، فوصفوا البيد لانها مساكنهم ، والنوق لانها مطاياهم وموادهم في طعامهم ، وأثـ لهم (من اصوافها واو بارها واشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين) وافتنوا في وصف السيف والرمح لانها عدتهم في حروبهم ومغازيهم الخ . .

والناس هنا انما يسكنون الدور ، بل القصور ، ويسعون في شوارع فؤاد الاول وقصر النيل (والكرنيش) لا في سقط اللوى ، ويمتطون في سفرهم وتجوالهم قطر السكك الحديد ، والترام ، والسيارات ، والمركبات ، لا متون العيس ، وعيونهم تقع كل يوم على ماتخرج الارض من مختلف الازهار والانوار ، لا على الحنظل ، ولا على الجدب المحل . وهم يستضيئون بالكهرباء لا بالزيت الخ ، وهم من هذا الذي يقع لحواسهم فوق ما شاع في نفوسهم من علوم الكون واسبابه ، انما يستلهمون الحس ويستوحون الشعور . ولا سبيل لهم الى غير ذلك . فمن أرادهم بعد هذا على ان يغمضوا جفونهم ، ويسدوا آذانهم ويحقنوا انوفهم ، ويبعثوا بمشاعرهم الباطنة وعواطفهم الكامنة ، الى جزيرة العرب تسلخ اليها الف عام مضت لتشهد ماشهد العرب ، وتحس ماأحس العرب ، وتقول ،اقال العرب — فذلك من لا يحق له ان يعد في الناس .

ثم مالنا ولكل هذا ، ألم تكن الجاهلية آدابها ، حتى اذا فتح الاسلام للعرب ، واتصلوا بطرف من الحضارة في العصر الأموي تطور هذا الادب وتلون مسايرة لكل

صور الحياة ، حتى اذا استحصدت الحضارة وذاع العلم في العصر العباسي ازداد تطور الادب فواتى كل مطالب العلم والحضارة . وهكذا مابرح الادب يتشكل و يتلون في كل عصر وفي كل بيئة ،متأثراً بما يتداخله من العوامل وما يحيط به من الاسباب .

والشيء بالشيء يذكر ، فلقد قيل لابن الرومي كيف يسبقك هذا الغلام من بني العباس ؟ (يريدون عبد الله بن المعتز) فقال هذا غلام اذا شعر فانما يصف آنية بيتـه وصدق ابن الرومي ، ودعك من تشبيهات ابن المعتز في السحاب ، وفي الهلال والنجوم وفي الخمر وفي خيل الطراد ، وانظر كيف يقول حتى في مقام الاستعطاف والمديح . قال يصف قلم ابي القاسم :

قلم ما أراه ام فلك يجري … بما شـاء قاسم و يسير

خاشـع ساجد يقبل قرطا … سـاً كما قبل البساط شكور

مرسل لاتراه يحبسه الشك … اذا ما جرى ولا التفكير

كم منايا و كم عطايا و كم عيـ … ـش وحتف تضم تلك السطور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أرأيت كيف يكون كلام الملك بن الملك حتى في مقام المديح والاستعطاف ؟ انه لايرى القلم يجري الا بما شاء مرسله وانه لايمثله في انحنائه على القرطاس الا بمن براهم في حضرة ابيه وحضرته خاشعين ساجدين يقبلون البساط شكراً على ما أوتوا من النعمة . ثم لا يرى هذا القلم الا يجري دائماً بالاسعاد والاشقاء و بالاحياء والافناء .

نظن ان هذه القضية من المسلمات عند اصحاب القديم وانصار الجديد .

وهنالك قضية أخرى لااحسبها كذلك موضع خلاف بين هذين الفريقين : وتلك ان هذا الادب الذي نتحاور فيه انما هو قبل كل شيء ادب العرب . ولهذا الادب اصله وعنصره ، وله مادته وجوهره ، وله بدائع تراكيبه ، وروائع أساليبـه ، وله نصاعة ديباجته واشراق بيانه ، وله تلاحم أجزائه ورصانة بنيانه ، وله موسيقاه تنحدر الى النفس فتحفزها من عجب ، وتثيرها من شجى وطرب ، حتى انك لتصيب الجمال كله في تنسيق اللفظ ، وتستشعر اللذة اجمعها في تجويد النسج دون اي اعتبار لمعنى او تعلق بخيال .

ألبس مهزك قول البحتري :

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفــة بالعقيق

وقوله :

ذاك وادي الاراك فاحبس قليلا مقصراً في ملامة او مطيــلا
لم يكن يومنا طويلاً بنعما ن ولكن كان البكاء طويلا

أليس يهزك هذا الكلام ، يتزاحف الى كبدك ؟ ومع هذا اي معنى فيـه ؟ واي غرض أراد ان يشكه الشـاعر به ؟ اللهم لا شيء غير شرف اللفظ ، وتلاحم النسج ، والبراعة في تأليف الكلام فاذا خرج بنا طلب المعاني الطريفة والتشبيهات الحديثة عن ارضاء الذوق وانحرف بنا عن مواتاة الطبع لقد حق لنا الا ننتظم ذلك الكلام في الادب العربي لا على التفصيل ولا على الاجمال .

* * *

هاتان قضيتان ليس الجمع بينهما بالهين ولا بالعسير . فلقد زعمت لك في بعض هذا المقال ان الادب كائن حي يجري عليه من سنن الكون ما يجري على سائر الاحيـاء . فاذا لم تر له الا ان يظل رابضاً في مجثمه من عصر طرفة وزهير فذلك تعسف اما تعسف ، وانكار لحقوق الحس وواقع الشعور أيما انكار . واذا قدرت له ان يسلخ جلده ، ويجدع انفه ويصلم أذنيـه ويفري لحمه ويبري عظمه . ثم يتزايل ويتمايع حتى يستوي للمعاني الحديثة ، ويتهيأ لمطالب الحيـاة الطريفة ، فذلك العسف بأدب العربية وذلك الخسف من دونه كل خسف .

اذن لقد اتفقنـا في تقديري على الاقل على انه لا سبيل لنا الى استعداد مشاعرنا واحساسنا من غير ما يحيط بنا من الاسباب كما انه لا ينبغي لنا أن نجانف لغة العرب وما ازلوا لنا من بارع الصيغ وروائع الاساليب .

فهل ترى يشق علينا الجمع بين هذين المذهبين ؟

كلا والله ما كان ذلك — لو يسطنع لغة العرب في البلاد — بعسير .

ولقد سبقكم القرآن الكريم بالترجمة عن السنة الامم الخالية ، فسوى المعنى بالضرورة ، كاملاً . ولكنه طبعه على ذوق العربية فروى عن ابليس في نشأة آدم (رب فانظرني

الى يوم الوقت المعلوم) ورويـ عن نوح (رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين) وروي عن شعيب وآل شعيب (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز . قال ياقومي ارهطي اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا — الآية الكريمة) وروي عن فرعون موسى يحدث الى وزيره : (ياهامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الاسباب . اسباب السموات فاطلع الى إله موسى واني لاظنه كاذباً — الآية الكريمة) وغيرهذا مما لا يستدركه الاحصاء من ترجمات الكتاب العزيز . افكان هذا كله ترجمة حرفية يدل فيها لفظ بانفظ ؟ ام ان الكتاب الكريم صاغها بما يتضمن المعنى كله ويتوافق في الوقت نفسه للهجة العرب .

صدق الله العظيم

وفي الواقع انك ترى فينا نفراً ممن اخذوا انفسهم بادب الغرب وطبعوا على ثقافته ، اذا ترجموا او اجتمعوا لاداء معنى حديث اخرجوه على سمت عربي لا ينبو عن الطبع ولا ينشز عن الذوق . وانما اعانهم على هذا فقههم في العربية ووفرة ما حصلوا من مفرداتها وكثرة ما قلبوا من النظر في صيغها واساليبها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

ولقد قلت لك في بعض هذا الكلام ان الادب كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة ما يجري على سائر الاحياء البس يندفع الوليد من رحم امه دقيقاً ضعيفاً لا يملك من امر نفسه كثيراً ولا قليلاً ، فما يبرح ، على الزمن ، بالغذاء ، والتربيــة والرياضة ينمو ويتفطن وتدرك جوارحه وتنضج حواسه حتى يصبح رجلاً كاملاً ، اذ هو هو مابدل بدأ بيد ، ولا رأساً برأس ، ولكنه صنع الطبيعة تربيه وتنميه رويداً رويداً بما يدخل عليــه من الغذاء ، وما يؤثر فيه من عناصر الحياة ، وانت ابوه ما تكاد تستشعر نموه ولا شبوبه للرجولة . وقل مثل هذا في الشجرة الباسقة المظلة المثمرة ، فلقد تخرج نجماً ، ثم لا تزال بموالاة السقي وحسن التعهد تنمو وتطول ، اذ انت لا تحس لما شيئاً من هذا حتى تنبسق وتزهر ، ومع هذا فالشجرة هي الشجرة ما غيرت ساقاً بساق ، ولا بدلت غصناً بغصن .

وكذلك ينبغي ان يكون الادب ، هو الادب العربي في اصله ومنجمه ، يتلون بتلون الزمن ، ويتشكل بتشكل الحضارة .

والحضارة لا تهجم هجوماً ، بل انها لتتسرب الى الناس في هوادة ولين ، فيسايرها الادب كذلك في هوادة ولين ، بحيث ان كل ما تنظر له به من معان حديثة ، واغراض طريفة ، يمد له بعض جوانبه حتى يتناولها و يسيغها و يتمضمها او يجريها في عروقه مجرى دمه حتى تندمج في نفسه وتصبح جزءاً من كله ، فيخرج بها وهو هو راباً ناماً ، اذ تصبح هي به كذلك عربية لاشية فيها وعلى ذلك درجت العرب من أول جاهليتهم الى ان انقبضت لغتهم واوشك ان يتقلص ظلها بتقلص حضارتهم في هذا العالم .

لقد وضحت لك هذا المقام ابين توضيح ، وليس بعده من شك في ان من يريدنا على ان لا نعدو حدود الادب في الجاهلية أو ما بعد الجاهلية انما هو مخلوق لا يؤمن بالحياة ولا بنواميس الحياة . وان من يريدنا على ان نطفر بالادب العربي انما هو انسان لا يؤمن بادب العرب .

باحث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رسالة الكرم

- ٧ -

« اللحق والخلفة »

اللحَق محركة كل شيء لحق شيئاً او أُلحق به من الحيوان والنبات وحمل النخل واللحق الثمر الذي يأتي بعد الاول . وكل ثمرة تجيء بعد ثمرة فهي لَحَق والجمع الحاق . وقيل اللحق في النخل ان ترطب وتُتْمِر ثم يخرج في بطنه شيء يكون اخضر فلما يرطب حتى يدركه الشتاء فيسقطه المطر وقد يكون نحو ذلك في الكرم يسمى لحقاً قال الطرماح في مثل ذلك يصف نخلة اطلعت بعد ينع ما كان خرج منها في وقته .

أَلحقَتْ ما استلعبت بالذي قد أنى اذ حان حين الصرام[1]

اي ألحقت طلعاً غريضاً كأنها لعبت به اذ اطلعته في غير حينه وذلك ان النخلة انما تطلع في الربيع فاذا أخرجت في آخر الصيف ما لا يكون له ينع فكأنها غير جادة فيما أطلعت . وفي المخصص واذا أنى العنب واناه ادراكه ثم اتى الكرم بحصرم جديد فذلك اللحق والجمع الحاق . والخِلْفَة كاللحق .

وقيل الخلفة شيء يحمله الكرم بعدما يسود العنب فيقطف العنب وهو غض أخضر لم يدرك بعد[2] والخلفة في جميع الشجر وهو في النخل اللحق . وفي اللسان والقاموس فيقطف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) الاستلعاب في النخل ان ينبت فيه شيء من البسر بعد الصرام . واستلعبت النخلة اطلعت طلعاً وفيها بقية من حملها الاول .

(٢) هكذا في الاصمعي وفيه ايضاً وهو الخلفة في العنب والنضاج في جميع الشجر وهو في النخل اللحق . وفيه ايضاً يقول احدنا لصاحبه أندخل تحت العنب فتلقط من الخلفة اي ادخل ولم ار النضاج الا جمعاً لنضيج او ناضج .

العنب وهو غض أخضر ثم يدرك وكذلك هو من سائر الثمر . والخلفة ايضاً ان يأتي الكرم بحصرم جديد . وخلفة الثمر الشيء بعد الشيء والاخلاف ان يكون في الشجر ثمر فيذهب فالذي يعود فيه خلفة ويقال أخلف الشجر إخلافاً اذا اخرج ورقاً بعد ورق قد تناثر . وخالفة الشجر ثمر يخرج بعد الثمر الكثير . وأخلف الشجر خرجت له ثمرة بعد ثمرة . وتخالفت الفاكهة بعضها بعضاً تخالفاً وخالفة اذا صارت تخالفاً من الاولى .

«الزبيب»

تقدم ان الضمير هو الذابل[1] من العنب .

والزبيب ذاوي العنب[2] اي يابسه واحدته زبيبة وقد أزبّ العنبُ وزبب فلان عنبه تزبيباً جعله زبيباً فتزبب هو . وفي التاج أزب العنب وزببه تزبيباً فتزبب ومن المجاز قولهم تزبب قبل ان يتحصرم وفي المخصص فان ترك العنب حتى يتكمش[3] فقد أزبّ فاذا فعل ذلك به فقد زُبِّب .

والزبيبي والزبّاب كشداد بائع الزبيب .

العُجْد بالضم الزبيب وقيل حبه وقيل اردؤه وقيل ثمر يشبهه وليس به . وقيل حب العنب وقد تقدم وذكر في القاموس جواز الفتح فيه .

العنجد قال في القاموس كجعفر وقنفذ وجندب الزبيب ونقلها في اللسان عن ابي زيد .

وفي المخصص وهو الزبيب والعُنْجُد والعُنْجَد وقيل هما حب الزبيب وقيل هما من الزبيب الاسود .

وفيه عن ابن دريد العُنجُد ردي الزبيب او حب العنب وليس له اشتقاق يوضع زيادة النون لانه ليس في كلامهم عَجَد[4] الا ان يكون فعلاً مماتاً . وفي اللسان والعَنْجَد

---

(١) ذبل كنصر وكرم النبات والغصن والانسان يذبل ذبلاً وذبولاً دق بعد الري وقيل ذوي . وذوى العود والبقل يذوي ذياً وذُوِياً ذبل فهو ذاو وهو ان لا يصيبه ريه او يضرب به الحر فيذبل ويضعف . وذوى العود يبس . (٢) والتين .

(٣) يقال تكمش جلده اي تقبض واجتمع .

(٤) في التكملة ليس في كلامهم عَجْد ولا عَجَد .

والعُنجُد[1] رديء الزبيب وقيل نواه ·

الفَصَى بالفاء والصاد حب الزبيب واحدته فصاة وانشد ابو حنيفة :

فَصى من فَصَى العنجد

الفضا[2] بالفاء حب الزبيب ·

القفى بالقاف المفتوحة · مقصورة العنجد وهو عجم الزبيب وهو لغة في الفقى · وقَفّى الرجل بالتشديد اكل القفى ·

وفي المخصص العَرَق الزبيب ومثله في القاموس ·

النواة عجمة الزبيب والتمر ·

وقد تقدم ان كل مافي جوف مأكول كالزبيب وما اشبهه · عَجَم واحدته عَجَمة وان الفرصد بلغاته عجم الزبيب ·

العَزْم بالفتح تجبير الزبيب وجمعه عُزُم ككتب · والعَزْمي بياع التجبير · والتجبير كرغيف ثفل كل شيء يعصر والعامة تقوله بالتاء · وفي المصباح انه معرب · وثفل كل شيء وثافله مااستقر تحته من كدر · وقال الليث الثفل ماارسب خثارته او علا صفوه من الاشياء كلها · والثفل الحب · وفي المصباح الثفل مثل قفل حثالة الشيء وهو الثخين الذي يبقى أسفل الصافي ·

الحُثال كغراب بقية الثفاريق والأقماع من الحشف والزبيب ·

الصناب ككتاب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب يؤتدم به · والمصنب كمنبر المولع باكل الصناب ·

الدَيْس نوع من الزبيب وقد تقدم انه ضرب من الكرم ينهض على ساق ·

الوَزِينة الزبيب الاسود ·

الطائفي زبيب عناقيده متراصفة الحب كأنه منسوب الى الطائف ·

* * *

(١) في التاج كجعفر وقنفذ فتأمل ·

(٢) هكذا في اللسان وفي التاج والصواب كتابته بالياء ·

« التزبيب وموضعه وما يتعلق به »

الجرين : الموضع الذي تجفف فيه الثمار جمعه جُرُن كبريد و برد وفي اللسان والجرين موضع البر وقد يكون للتمر والعنب والجمع أجْرِنَة وجُرُن وقد أجْرَنَ العنب وفي المخصص فاذا وضع في الجرين قيل أجْرِن ·

الرحبة بالتحريك موضع العنب بمنزلة الجرين للتمر قال الاصمعي ولا يسمون موضع العنب الجرين انما يسمونه الرحبه · وقال في موضع آخر وأُجْرِنَ العنب في الجرين اي يجمع فيه وقد اجرناه ·

ويقال فرش العنب في الرحبة بسطه ليزبب ·

الكَتَر بالفتح والتاء المثناة حائط الجرين اي جرين التمر والزبيب ·

الأَشْبِرَة هي الجرين كما في المخصص ·

المِحْمل كمنبر والحاملة الزنبيل الذي يحمل فيه العنب الى الجرين ·

الكنهدر كسفرجل · هو الذي ينقل عليه العنب واللبن ونحوهما ·

المكتل كمنبر : والمكتلة زنبيل يحمل فيه التمر او العنب الى الجرين وقيل هو شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً · والجمع المكاتل ·

http://Archivebeta.Sakhrit.com

الزَّبيل الذي يحمل فيه العنب الى الجرين والوعاء يحمل فيه جمعه زُبُل وزُبْلان قال الجوهري اذا كسرته شددت فقلت زِبِّيل او زنبيل لانه ليس في الكلام فعليل بالفتح ونقل الصاغاني عن الفراء الفتح · وجمع زنبيل زنابيل وزبل الشيء وازدبله احتمله ·

المعقاب البيت يجعل فيه الزبيب ·

المِرحة بالكسر الانبار من الزبيب وهو المحل الذي يخزن فيه ذلك ·

« عصر العنب والزبيب »

يقال عَمَلَ العنب يَعْمُله عملاً اضد بعضه فوق بعض وفي المخصص عَمَلت العنب في الزبيل أعْمُله وذلك اذا اردت ان تعصره فجعلته قبل ذلك في الزُّبُل فلا يرسخ الشمس حتى يشرب العنب ماء العيدان ·

عصر العنب ونحوه مماله دهن اوشراب اوعسل يعصره عصراً من باب ضرب واعتصره اعتصاراً · استخرج ماءه او ما فيه فهو معصور وعصير فعيل بمعنى مفعول · وقيل عَصَره

عَصْراً وعصّره تعصيراً ولي عصره بنفسه · واعتصره اذا عصر له خاصة وقد انعصر العنب وتعصر وعُصارة الشيء بالضم وعُصاره وعصيره ماتحلب منه اذا عصرته ·

وقال في المخصص اذا اعتصر العنب فاول ما يخرج منه العُصارة وجمعها عُصارات وعُصار وكذلك اسم كل شيء عصر · وقيل العصارة ماسال عن العصر · وما بقي من الثفل ايضاً بعد العصر · وكل شيء عصر ماؤه فهو عصير واعتصر عصيراً اتخذه ·

المَعْصَرة التي يعصر فيها العنب والمعصرة موضع العصر ·

المِعْصَر كثير ما يعصر فيه العنب والمِعْصار الذي يجعل فيه الشيء ثم يعصر حتى يتحلب ماؤه ·

العواصر ثلاثة احجار يعصر بها العنب يجعلون بعضها فوق بعض الركوة مثلثة الراء رقعة تحت العواصر · والافصح فيها الفتح وجمعها رِكاء ·

الرَّهْص شدة العصر رهص الشيء كمنع عصره عصراً شديداً ·

القَرْو مسيل المعصرة ومثعبها والجمع القُرِيّ والاقراء ولا فعل له ·

«البحث صلة»

سليم الجندي
عضو المجمع العلمي العربي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آراء وافكار

تأثير اللغة العربية

« في اللغات الاوربية »

نشر السيد محمد امين محرز مقالة في المقتطم عالج فيها بعضاً من المعلومات عن تأثير اللغة العربية و بالاخص اللهجات العربية العامية القديمة في اللغات المنحدرة من اللغة اللاتينية الام التي كان لها اتصال بالعرب . ولايخفى على كل من تعلم اللغة اللاتينية خاصية عدم وجود أداة التعريف فيهـا مطلقاً حتى ان اللغات الحديثة المنحدرة منها والتي لم يكن للعرب بها اتصال حافظت على هذه القاعدة وهي عدم وجود أداة التعريف فيها مثل اللغة الرومانية في ولايتي « الافلاخ والبغدان » وكذا في لغة «الرومنش» المتحدث بها في شرق سويسرا اما اللغات المتولدة من اللغة اللاتينية وكان للعرب بهـا اتصال فقد أخذت أداة التعريف عنهم من دون ملاحظة الاحرف شمسية كانت او قمرية وهي اللغات البرتغاليـة والاسبانيولية والفرنسوية والايطالية وبما ان أداة التعريف في اللغة البرتغالية هي (O) مثل كلمة (Opan) اي الخبز و (اوبورتو) (Oporto) اي (الميناء) فانت ترى انهـا أخذت بالاحرف الشمسية بلا تمييز بينهـا واللغة الاسبانيولية اخذت بالاحرف القمرية وأداة التعريف فيها (ال) . مثال ذلك (Elpain) الخبز وكلمة (Elporto) (الميناء) واداة التعريف في اللغة الفرنسوية هي (lo) وفي الايطالية (il) .

ولما دخل العرب اسبانيا وفتحوا جنوب فرنسا وجنوب ايطاليـا وجدوا الشعب يقول عن الماء (Aqua) فنطق العرب حرف (Q) (قافاً) فصارت (اقوى) فاثرت اللهجات العامية في ذلك الوقت التأثير الملموس للآن في الصعيد وبعض مدن شمال افريقيا التي ينطق اهلها (القاف) (جافا) فأخذ الاسبان بهذه القاعدة وسموا الماء بدلاً من (Aqua) بـ (Agua) ومازالت مستعملة للآن وكذلك في البرتغال . اما في فرنسـا فيظهر انهم اخذوا

باللهجة العامية المستعملة الآن في التكلم في عواصم المدن المصرية ونطقوا القاف (آفا) ولا يخفى ان الاحرف المتحركة في آخر الكلمات اللاتينية تسكن في اللغة الفرنسوية فكلمة (Aqua) صارت (Aque) اي ان (أقوا) صارت تنطق (أقو) ونطقوا القاف همزة كما هو الواقع في مصر الآن فصارت (آاو) واختصرت الى (او) (Eau) وهي ما يعني به في الفرنسوية (الماء) . وتروى بعض اللهجات في بلاد الارياف مثل القنايات والزنكلون في مديرية الشرقية يعطشون الكاف و يقولون عن كلمة (الحكومة) مثلاً (الحتشومة) .

وقد اخذت اللغة الايطالية الحديثة واللاتينية ايضاً بالنطق العامي فتعطش الكاف امام الاحرف المتحركة مثال ذلك انهم يقولون عن (Cicéron) (سيسيرون) المحامي الروماني الشهير (Cicérone) (تشيتشيرون) .

ولكن الالمان حافظوا على النطق اللاتيني الاصلي ومازالوا يسمونه للآن (Kekeré) كيكرو . وقد ذكر ابن بطوطة في رحلاته انه لما ذهب الى القسطنطينية ايام البيزنطيين في جملة رسل ملك التتار ليخطبوا بنت امبراطور القسطنطينية البيزنطي لابن ملك التتار سمع الاهلين حينما كان يمر بهم في الاسواق يشيرون اليه بكلمة (سراكنو) فاخذتها الامم الاوربية الغربية وسمت بها العرب . وقد عطش الايطاليون (الكاف) على ماسبق بيانه فكانوا يسمون العرب (سراتشيني) (Sarracini) وصحفها الفرنسويون تصحيفاً يسيراً فقالوا (ساراز ين) (Sarrasin) وقد كثر ذكرها في حروب شرلمان والحروب الصليبية وقد اخذها عنهم الانكليز ونطقوا بها (سارازانز) (Sarrasins) .

ولنرجع الآن لترجمة لفظ البيزنطيين (ساراكينو) ولها معنى قبيح لانك لا تنظر من عدوك طبعاً ان يسميك ملاكاً فلفظة (سارا) معناها (صحراء) ولفظة (كينو) باللغة اليونانية القديمة (كينوس) (Kynos) يعني (كلب) .

وكثير مثل هذه الكلمات تجده في اللغة الاوربية الحديثة ولها اصل عربي واضرب مثالاً بكلمة تطلق على كثير من محال تجارية صحية في القطر المصري وفي اور با باجمعها وهي لفظة (فارمسي Pharmacie) وهي مجموعة كلمتين احداهما عربية اصلاً والثانية يونانية و (ماكيون) باليونانية (Makcion) معناها (مصنع) و (Phar) لو نطقنا

بكل حرف على حدة لكانت (بهار) اي (مصنع البهـار) وكثير مثل ذلك في اللغة الفرنسوية مثل (كاف) (Cave) (قبو) اي محل خزن الخمر و(مسكين) (Mesquin) و (الجبر) (Algebre) وقد لاحظت في الاسكندرية بنفسي ان بعض صناع البلاط القادمين من جنوب ايطاليا عندما يسألون عن المقاطعة التي كانوا يستوطنونها في ايطاليـا يقولون (آلابريا) (Alabria) عن مقاطعة (كالابريا) (calbria) اي انهم ينطقون (الكاف) بـ (الآف) كما سبق التوضيح .

من تعاليق صاحب مختار الصحاح

« على كتاب جامع الاصول في أحاديث الرسول »

نشرتُ في المجلد (٨) الصفحة (٦٤١) من مجلة مجمعنـا العلمي بحثاً عن صاحب مختار الصحاح ونقلتُ اليه السماع المدوّن على الجزء الخامس من كتاب جامع الاصول في أحاديث الرسول وقد وجدتُ في كناشي بعض تعاليق لصاحب المختار كنت نقلتها عن هوامش الكتاب المذكور فأحببت نشرها لاطلاع العلماء .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال : لم أجد المحوق بمعنى المحاق الا في لفظ الحديث وكفى به حجة .

اما الحديث فهو ان بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلنَ يارسول الله أينـا أسرع بك لحوقاً قال : أطولكنّ يداً فأخذوا قصبة فذرعوا بها فكانت سودة أطولهن يداً . فعلمنا بعد انما كان طول يدها الصدقة وكانت اسرعنا لحوقاً به وكانت تحب الصدقة . أخرجه البخاري ومسلم والنسائي .

وقال في تعليق آخر :

لم أجد من البيدر فعلاً الا في هذا الحديث بيدر تمرك الى آخر الحديث .

وقال عند ذكر حديث « دعوا الحبشة ما وَدَعوكم واتركوا الترك ما تركوكم » ان هذا حجة على أئمة اللغة في قولهم ان دع لايستعمل منه ماض .

عبد الله مخلص

مطبوعات حديثة

المخارج في الحيل

« للامام محمد (توفي ١٨٩ هـ) »

لم يكف المستشرقين خدمتهم لآدابنا العربية بنشر كتبنا التاريخية والادبية حتى سمت بهم همتهم الى نشر كتبنا الفقهية والدينية ايضاً . وهذا الكتاب أعني كتاب (المخارج في الحيل) هو من أعرق آثار السلف في الدين ، وأقدمها في التصنيف ، فهو للامام محمد بن الحسن الشيباني احد صاحبي ابي حنيفة اللذين رويا مذهبه وشرحاه وأكملا ما كان بدأ به من تقرير القواعد وتخريج المسائل وتفريع الاحكام .

وقد عمد الى هذا الكتاب المستشرق الالماني يوسف شخت (Josepf schacht) فطبعه في ليبسك طبعاً متقناً مصححاً ، وألحق به رواية أخرى لهذا الكتاب لشمس الائمة السرخسي . وقد بلغ مجموع صفحات الكتاب (١٣٦) صفحة . ورواية السرخسي لهذا الكتاب مفتتحة بهذه العبارة : (من كتاب المبسوط لشمس الأئمة ابي بكر محمد بن احمد ابن ابي سهل السرخسي المحتوي على كتب ظاهر الرواية للامام محمد بن الحسن الشيباني كتاب الحيل الخ) . فيفهم من هذا ان كتاب (مخارج الحيل) ليس كتاباً مستقلاً ألفه الامام محمد وانما هو جزء من كتبه الفقهية المشهورة المسماة (كتب ظاهر الرواية) وهي أصل الاصول في مذهب الامام ابي حنيفة . قال العلامة ابن عابدين في منظومته رسم المفتي :

(وكتب ظاهر الرواية أتت ستاً وبالاصول ايضاً سميت)

(صنفها محمد الشيباني حرّر فيها المذهب النعماني)

(الجامع الصغير والكبير والسير الكبير والصغير)

(ثم الزيادات مع المبسوط تواترت بالسند المضبوط)

وقد جمع الامام الحاكم هذه الكتب الستة في كتاب سماه (الكافي) وقد شرح (الكافي)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الامام السرخسي في كتاب سماه (المبسوط) وعليه المعول في مذهب السادة الحنفية . ولذا قال ابن عابدين في منظومته المذكورة :

(ويجمع الست كتاب الكافي للحاكم الشهيد فهو الكافي)
(أقوى شروحه الذي كالشمس مبسوط شمس الائمة السرخسي)

فكتاب (مخارج الحيل) هو احد مضامين ظاهر الرواية للامام محمد . وقد رويت عنه كتب ظاهر الرواية بعدة طرق أهمها ماجاء في مبسوط السرخسي ، فالمستشرق (شخت) طبع كتاب المخارج هذا باحدى الروايات عن الامام محمد ثم ألحقها برواية السرخسي في كتابه (المبسوط) .

ومعنى كلمة (مخارج) ان المكلف اذا وقع في ضيق من امر الحلال والحرام يرجع فيه الى الفقيه فيجد له مخرجاً من ضيقه : بان يفتيه فتوى شرعية تحلل له ما كان حرم عليه او تحرم عليه ما كان حل له . فهذه الفتاوى التي تنير المخرج أمام المكلف المرهق سموها (الحيل) وقد ألف الفقهاء كتباً كثيرة في هذا النوع من الفتاوى أشهرها (حيل الخصاف) و ياليتهم لم يسموها بهذا الاسم القبيح فان التحيل في الدين ضرب من التلاعب به بل هو التلعب بعينه والعياذ بالله . وانا لنكبر بفقه ديننا و بكبار أئمتنا — ولاسيما الامام محمد وشمس الأئمة السرخسي — عن مثل هذا الموقف الذي هو شأن من لا خلاق لهم من المتسمين بسمات العلماء . ولذا أنكر بعضهم أن يكون (كتاب المخارج في الحيل) للامام محمد . واسمع ماقاله شارحه السرخسي في فاتحة روايته وها كه بنصه :

« اختلف النـاس في كتاب الحيل انه من تصنيف محمد رحمه الله ام لا ؟ كان ابو سليمان الجوزجاني رحمه الله ينكر ذلك . و يقول من قال ان محمداً رحمه الله صنف كتاباً سماه الحيل فلاتصدقه . وما في أيدي الناس فإنما جمعه وراقوا بغداد . وقال ان الجهـال ينسبون علماءنا (يريد بهم علماء السادة الحنفية) رحمهم الله الى ذلك على سبيل التعبير (يعني ان الجهال من أتباع المذاهب الاخرى ينسبون الى علماء المذهب الحنفي ما لم يقولوه من امر الحيل الفقهية تعبيراً لهم وزراية عليهم) فكيف نظن بمحمد رحمه الله انه سمى شيئاً من تصانيفه بهذا الاسم ليكون ذلك عوناً للجهال على مايتقولون . واماابوحفص رحمه الله فكان يقول : هو من تصنيف محمد رحمه الله وكان يروي عنه ذلك . وهو

الاصحاء » هذا ماقاله الامام السرخسي وقد ختمه بقوله (وهو الاصح) فدل على ان (كتاب مخارج الحيل) هو للامام محمد نفسه . لكن الحيل التي علم بها الامام محمد وشارحه السرخسي وأمثالها من ثقات أئمة مذهبنا الحنفي إنما هي حيل يراد بها تأييد حق بعد ان كاد هذا الحق يفوت صاحبه و يفلت من بين يديه ولم يجد نصاً صريحاً يحفظ له حقه فالفقيه يرشده الى طريقة شرعية تساعده على حفظ حقه من الضياع . اما اذا كانت الحيلة تساعد المبطل على بطله وعلى إضاعة حق ثابت لآخر — فان الأئمة رضوان الله عليهم وفي طليعتهم — الامامان محمد والسرخسي — لا يرضون هذه الحيلة ولا يعلمونها . ولا يرشدون اليها . بل ينكرونها ويمقتونها أشد المقت . وبه يمقتون الدال عليها والآمر بها : فالمدين الذي يحاول الفرار من دينه الثابت في ذمته اذا علمه احد الفقهاء حيلة توصل بها الى أكل ذلك الدين كان المدين والفقيه آثمين بل فاسقين في نظر الامام محمد وشارحه السرخسي وسائر أئمة الاسلام — والدائن الذي له دين ثابت في ذمة آخر وكانت أدلة الاثبات في يده ضعيفة فله ان يلجأ الى فقيه يرشده الى طريقة شرعية تساعد القاضي على إثبات دينه والحكم به واستنقاذه من يد المدين الظالم — فيكون هذا الفقيه وذاك الدائن غير آثمين بالطبع . ولكن مع هذا كان يحسن ان لا يطلق على هذا النوع من الفتاوى الشرعية — اسم (حيل) ولعل الامام محمداً رحمه الله لاحظ هذا فسمى كتابه (كتاب المخارج في الحيل) وقد أحسن كل الاحسان ولو سماه كتاب (المخارج في المخارج) اي في المضايق والمآزق لكان أكثر احساناً لعمري .

والحاصل ان الحيل التي تضيع على الناس حقوقهم هي المذمومة المنهي عنها شرعاً — وهي التي يجب ان لا تسمى شرعية لان الشرع براء منها — وهي التي ورد في بعض الآثار بحق المفتين بها : « لا تعلموا أولاد السفهاء العلم فيعلموا الناس الحيل » وكفى بهذا دليلاً على قبحها وسفاهة أربابها .

هذا وانا لنشكر للمستشرقين (ولا سيما الاستاذ شخت) عنايتهم بنشر مآثر أسلافنا حتى الفقهية الدينية منها . لكننا نأمل منهم ان يتفطنوا الى (المتشابهات) من امور ديننا : كمثل اشتباه (بحث الحيل) ويفهموا جيداً ماقاله الامام السرخسي نفسه في هذا الصدد وهو قوله (ص٨٨ من كتاب مخارج الحيل) : (فالحاصل ان ما يتخلص به الرجل من الحرام او يتوصل به الى الحلال من الحيل فهو حسن . وانما يكره من ذلك ان يحتال في

حق لرجل حق يبطله · او في باطل حق يموّهه او في حق حق يدخل فيه شبهة · فما كان على هذا السبيل فهو مكروه · وما كان على السبيل الذي قلنا اولاً فلا بأس به · لان الله تعالى قال : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) ففي النوع الاول معنى التعاون على البر والتقوى ، وفي النوع الثاني معنى التعاون على الاثم والعدوان اه ·

«المغربي»

—*«×»*—

البستان

« جمعه العلامة الشيخ عبد الله البستاني »

هو كتاب في اللغة أخرجته المطبعة الاميركية ببيروت يقع في قُرابة ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير متقن الطبع حسن التبويب والترتيب · فهو من هذه الناحية يغني في كثير من المواد عن كثير من المعاجم القديمة ، ثم هو من حيث السعة والصحة ايضاً يغني عن المعاجم الحديثة التي لم يسلم اكثرها من كثير من الخطأ ·

فانت في البستان تكاد ترى ماتراه في اللسان ، بل قد تجد بعض الفاظ أغفلها اللسان نفسه — واللسان من أغزر كتب اللغة مادة — تراه في البستان مبوبًا مرتبًا لا حشو فيه ولا تكرار ·

لذلك يكون البستان قد سدَّ ثلمة ظاهرة في دواوين اللغة لا كما قيل فيه : انه نسخة عن أقرب الموارد ·

ولوكان لرجل فرد في العصر الحاضر ان يستبد بوضع معجم لكان أستاذنا العلامة عبد الله البستاني حقيقاً ان يكونه · وهو الرجل الذي انقادت اليه هذه اللغة بمفرداتهــا وغرائبها ، وواردها وشاردها ·

بقي ان الترتيب والدقة ، على فائدتها ، ليسا كل ما نحتاج اليه في معاجمنا ، فهناك المصطلحات الحديثــة ، وتحديد بعض الألفاظ ، وتوضيح بعض المعــاني ، واقرار وجه واحد لالفاظ تكثر فيها اللغات ، الى غير ذلك مما أعرض عنه العلامة البستاني في معجمه

لانه من أعمال المجامع العلمية ، اوالجماعات اللغوية ، لا من عمل الفرد . فالكتاب من هذه الناحية ناقص ، ولا يسدّ حاجة العرب والعربية .

وثمة نقص آخر ، هو اغفال ألفاظ قد يفتقر اليها . وهذا مخالف للغرض الذي أراده المؤلف من وضع مطول يجمع اللغة كلها ؛ اختصره بآخر اقتصر فيه على الضروري من الالفاظ . وهناك أغلاط نرجح انها مطبعية ، غير ان وقوعها ثم تركها من دون تصليح ولا اشارة ، ليس مما يجوز في معجم يرجع اليه .

وفي رأينا ان هذين النقصين سببها ايضاً الانفراد في التأليف ، ولا يسلم مؤلف من مثل هذا مها علا قدره العلمي ، وسمت منزلته في اللغة .

الألفاظ المغفلة

فما أغفله : (السَّمْود) بمعني الطويل الشديد . و (ساد) بمعنى سوِد صار أسود . و(الاسود) العظيم من الحيات وفيه سواد . لم يورد صاحب البستان في جمعه الا (أساود) وفي اللسان : (اسودات) و (اساود) و (اساويد) . قلت ولعل اسودات جمع (اسودة) مؤنث (اسود) على خلاف القياس .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(المسدود) السيء الخلق لم يذكرها البستان . وكذلك : (السند) بمعنى المعتمد . وما أظن قوله : السند « ما استند اليه الانسان من حائط او غيره » كافياً . والسرد بمعنى الزرد . و (السرّاد) وهو الزرّاد . و (السرادة) البُسرة تحلو قبل ان تُزهي وهي بلحة .

أورد (مساعدة) مصدر (ساعد) ولم يذكر (سِعاداً) ولم يذكر من معاني : (سمّد) رفع رأسه تكبراً بل خص هذا المعنى بـ (سمِد) وزان طرب . وفي اللسان سمّد سموداً رفع رأسه تكبراً، وكل رافع رأسه فهو سامد ، وقد سمِد يسمَد ويسمُد سموداً . واغفل أسمَد وبعضاً من معاني اسمدّ واسمادّ .

واغفل . من معاني (السُّمُد) القليل من النوم .

ولم يذكر في (سوِد) استادم بمعنى (سادم) ولا ذكر (المَسود) وهو الذي ساده غيره . ولا (المسوّد) وهو السيد او الذي سوّده غيره . وأغفل (شاده) مشادة

وشداداً غالبه . و (شد) المئزر جد واجتهد .

هذا ماعثرت عليه في مواد معدودة متتابعة ، ولعل الناظر في هذا المعجم نظراً دقيقاً مطولاً ، يرى أشياء كثيرة قد أغفلها صاحبه . وفي ذلك اخلال بالغرض المقصود من جعل هذا المعجم مطولاً جامعاً . ولا يرد على هذا انها كلمات استثقلها فاطرحها اذ هو قد ذكر في جملة ماذكره أمثال :

(الأُواشيا) ضرب من النبت . (الرقرشب) المسن و - السيء الحال . . . و (فرشيم) وثب وثباً متقارباً . و (افرنشع) (افرنشاعاً) : ايرنشق ورفع رأسه ونشط . و (القرنشع) المنتصب المنتشر المتهيء للشر . و (فرشم) الشيء جمعه كقرمشه : كل هذا على ثقله وقلة فائدته جاء في حقل واحد من صفحة واحدة فما بالك في الصفحات الاخرى ؟

الاغلاط المطبعية

قلنا : (الأغلاط المطبعية) لان الاستاذ لا يخفى عليه صوابها ولا يمكن ان يقع مثله في مثلها . من ذلك :

الشُكْر : عُرفان الاحسان (كذا) بضم الشين والكاف من (الشكر) وصوابها سكون الكاف . وبضم العين من عِرفان وصوابها بالكسر .

(رمخة) جاء في (واث) عندي (وثة) من خبر ورمخة منه ، اي يسير . ولبس في البستان الا (رمخ) في الامر (رمخ) بالسين . ولم ترد فيه (الرضخة) بالضاد . وانما جاء فيه (الرضخ) خبر تسمعه ولا تستيقنه . وفي اللسان (الرضخة) الشيء اليسير تسمعه من الخبر من غير ان تستيقنه . فالصواب اذاً (رضخة) بالضاد .

(مرمّد) الصبي أحسن غذاءه . برفع الصبي وحقها النصب وهي من الاغلاط الظاهرة .

(المسرهد) السمين من (الاسمنة) وصوابها من (الاسمنة) ففي لسان العرب سنام مسرهد اي سمين .

(يُمنة . وقطاف) جاء في (سند) . . . و - ذنبُ الناقة خطر فضرب قطاتها يُمنة و يسرة . والصواب (قطاتها) بالتاء لابالفاء على مافي التاج و(يَمنة) بالفتح لا بالضم .

وقد وردت (يُمنة) بالضم ايضاً في(لفت) قال: التفت - وبوجهه يُمنة(كذا) و يسرة .

(القرن) وفي (سند) ايضاً : (ناقة مساندةالقرن : اي صلبته متلاحكة) والصواب القرى على مافي اللسان والتاج · أنشد ثعلب :

مذكرة الثنيا مساندة القرى جماليه تختب ثم تنيب

والقرى الظهر : يقال جمل اقرى طويل القرا وهو الظهر والانثى (قرواء) وقد وردت القَرى والقَرا · مقصورة وممدودة ·

(المُسنَّدة) : ضرب من الثياب ولعل الصواب مُسنَّدة كمعظمة بالتثقيل ·

هذه أغلاط منها اربعة في مادة واحدة هي : (سند) · وعسى ان لا يجد المتتبع شيئاً كثيراً من مثل ذلك · على ان هذا الغلط اذا كان يسيراً ضبطه ومعرفتـه على المشتغلين باللغة ، فليس امره بالهين على الطلاب والشادين ·

القصور في التعريف

(السيكران) : نبت دائم الخضرة يؤكل حبه ؟

(السكر) : بالفتح بقلة من الاحرار ؟

(السمام) : بالفتح ضرب من الطير واحدته سمامة على ان ابن منظور في لسان العرب حدد هذا التعريف بعض الشيء بقوله : ضرب من الطير نحو السماني واحدته سمامة · وفي التهذيب ضرب من الطير دون القطا في الخلقة ·

(اسملاج) : عيد للنصارى ! وكم للنصارى من عيد ؟

(سم السمك) : شجرة الماهيزهرة وتعرف باليوصير اه وترجع الى (اليوصير) فيعرفه بانه : نبت يتداوى به و يعرف بـ (سكر الحوت) أجوده الذهبي الزهر · فالطالب بين (سكر الحوت) و (الماهيزهرة) و (سم الحوت) لا يعرف كيف يخرج ولا بايها يأخذ ؟

وأخرى هي التعريف الدوري الذي أشار اليه المفضال الخوري بطرس البستاني في المقدمة المحتمة التي صدَّر بها الجزء الثاني من البستان · عدد فيهـا شوائب المعاجم وجعل التعريف الدوري احداهن ·

(الجو) : الهواء · و (الهوآء) الجو ·

(تلافي) تدارك · (تدارك) تلافي ·

ARCHIVE

وهذا بعض ما ذكره صاحب المقدمة ووقع فيه صاحب البستان وامثال ذلك كثير :

(النصي) : نبت سبط مادام رطباً فاذا ابيض فهو الطريفة .

(الطريفة) : النصي والصليان اذا ابيضا او اذا اعتقا وعَمِيا .

وليست بالحجة المُعذِرة ان المعاجم القديمة هكذا وضعت ، وان اصحاب المعاجم الحديثة على هذا جروا . فالزمن الذي نعيش فيه يتطلب غير ما كان يتطلبه عصر اصحاب المعاجم القديمة ، والعلامة البستاني كان يرجى منه غير ما يرجى من غيره ممن وضعوا المعاجم الحديثة والا كان الامر متابعة والعمل مراجعة .

هذا وقد أغفلت بعض الحركات في كلمات كان من حقها ان تضبط في مثل هذا المعجم وأُدخلت بعض كلمات في غير مواضعها .

على ان هذه الهفوات لا تنقص شيئاً كثيراً من قدر الكتاب ومقام صاحبه . وعسى ان يقف الافراد في وضع المعاجم اللغوية بعد اليوم عند هذا الحد اذا كان التأليف متابعة .

وقد وعدت المطبعة الاميركية ان تخرج معجماً يجمع الالفاظ الحديثة والمصطلحات العلمية . فعسى ان ترجع في عملها هذا الى لجنة من الثقات ليكون العمل أكمل والثقة أكبر .

هذا ونحن نكرر الثناء على المطبعة الاميركية ونرجو ان يستأنف المرسلون الاميركان تلك النهضة العربية التي كانوا بدأوا بها في أوائل عهدهم . ونستمطر الرحمة والرضوان لاستاذنا العلامة عبد الله البستاني على خدمته الجلى للغة العربية وأبنائها .

عضو المجمع العلمي العربي
عارف النكدي

كتاب الدواجن

« لمؤلفه الأمير مصطفى الشهابي »

وهذا ايضاً من الكتب الزراعية النافعة التي عاهد مؤلفها الفاضل نفسه على التصنيف فيها . والكتاب كما يظهر من اسمه يبحث بايجاز عن طرائق تربية الحيوانات الداجنة ويقع في ٢٣٢ صفحة ويحوي ١٦ شكلاً ، ويتناول في قسمه الاول القواعد العامة لهذا الفن « كالتعريفات والخصائص الفردية والتبدلات والوراثة وطرائق التسافد والانتخاب والاصطفاء والتهجين والتخليط والتبغيل والتغذية واهم الاغذية وتعيين الشحنة ومساكن الدواجن والغاية من تربيتها وتصنيف عروقها » . وفي قسمه الثاني القواعد الخاصة بحلية أهم الحيوانات الداجنة وتربيتها ، فيذكر مثلاً عن الخيل « خلقها وألوانها وشياتها ومعرفة سنها وتحلية عروقها العربية والافريقية والاوربية ، وتوليد الخيل ورياضتها وعلفها وتعهدها وعيوبها وأمراضها » ، ويذكر هذه الابحاث عن الحمير والبغال والبقر والجواميس والضأن والمعز والابل .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.co

ومما يلفت النظر ان المؤلف قد اصطلح على تعريب لفظة (Genre) الافرنسية بجنس و (espèce) بنوع و (Variété) بصنف او ضرب و (Embranchement) بشعبة و (classe) بصف و (ordre) برتبة و (race) بعرق (اورس او سلالة) و (Séléction) بانتخاب و (consanguinité) باصطفاء و(croisement) بتهجين و (métis) بهجين او مقرف و (métissage) بتخليط و (Hybridation) بتبغيل و (Hybride) ببغل (او نغل او خلاسي) و (Ration journalière) بشحنة الى آخر ما هنالك من المصطلحات العلمية التي نتمنى لو تتوحد في انحاء البلاد العربية فتنقذ بذلك المؤلفات العلمية العربية الحديثة من بلبلة المصطلحات واختلافها بين مصر والشام والعراق والمغرب . وذكر المؤلف عدداً كبيراً من الاسماء الفصحى لاعضاء الخيل وألوانها وشياتها وما يقابلها بالفرنسية مما كان درجه في المجلدين الخامس والعاشر من هذه المجلة . وأظهر ان اسم العوسي الذي يعرف به احد صنوف الضأن في بلاد الشام مذكور في معاجمنا القديمة وان ضأن مرينوس الشهير في اوربا واميركا بجودة صوفه هو من اصل افريقي وان اسمه

مشتق من قبيلة بني مرين . هذا والكتاب يعد في الجملة من خير ماوضع في هذا الفن لخريجي المدارس الزراعية وللمشتغلين بتربية الدواجن في البلاد العربية . فنهنئ مؤلفه الفاضل ببروز هذه الحلقة الخامسة من سلسلته الزراعية ونرجو له التوفيق لا كمالها .

المهندس الزراعي
وصفي زكريا

المختارات

« جمعها الأب رفائيل نخلة اليسوعي وطبعها بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت »
« نجاء الجزء الاول منها في ٢٣٤ صفحة من القطع الصغير وسيليه »
« الجزء الثاني »

نظر المصنف الفاضل في جمع هذه المختارات المدرسية الى عوامل شتى ترغب التلامذة في دراسة آداب اللغة العربية منها ان تكون القطع المختارة لادباء القرن الحاضر دون غيرهم وان يكون بعضها في موضوعات وطنية والباقي في موضوعات متنوعة وتكون لغتها بسيطة متينة الحوك ، ويكون في الكتاب صور المؤلفين وموجز في تراجمهم . ولا شك ان نظرة المؤلف في عوامل التشويق هذه هي نظرة صائبة . لكن الاقتصار على الادباء المعاصرين لا يجوز الا في المدارس الابتدائية او في الصفوف الاولى من مدارس التجهيز اما في الصفوف العليا من تلك المدارس (كالتاسع والعاشر والحادي عشر) فيجب ان يدرس التلامذة قطعاً للفحول الأدباء الأقدمين اذ بغيرها لايمكن اكتساب ملكة اللغة والوقوف حق على البسيط من أسرارها .

وجاء في الجزء الاول من المختارات قطع لثلاثين أديباً من المعاصرين منهم الفحول ومنهم الذين يعدون من الدرجة الرابعة . ولذلك نظن ان الأب المحترم لمينظر في انتقائهم الى عامل ما من عوامل الانتقاء المختلفة . وعلى كل أرى ان كتابه هو من كتب القراءة المفيدة ولا سيما للأحداث . « الشهابي »

حقائق ودقائق

« وهي مقالات مختارة من عشرة مجلدات من مجلة العرفان »

صدر الجزء الاول من هذه المختارات حاوياً لاثنتي عشرة مقالة في ٣٢٠ صفحة · وموضوعات المقالات مختلفة وكلها مفيدة ومطبوعة طبعاً جيداً · وفي الكتاب صور لبعض رجال العرب المشهورين · فنشكر للأديب صاحب العرفان هديته ونتمنى صدور الاجزاء التالية من مختاراته · « الشهابي »

التعاون

« كتاب اجتماعي الفه الاستاذ احمد لاشين يقع في ٤٥٠ صفحة »
« بقطع الربع »

هو سفر تتجلى في كل سطر منه روح الغيرة الحميدة الكامنة في صدر المؤلف وغزارة معارفه في معالجة الادواء الاجتماعية · وهو فوق ذلك مكتوب بلغة فصيحة لاتكلف فيها يفهمها الفصحاء وغير الفصحاء ومزين بعدد من رسوم كبار الاساتذة الاجتماعيين الذين كان لهم القدح المعلى في نشر أساليب التعاون في اوربة ومصر وتأسيس الجمعيات التعاونية في مختلف البلدان ·

ما لا يستطيعه الفرد تستطيعه الجماعة مشتركةً متعاونةً ، فالتعاون اذاً في الصناعة والزراعة والاقراض والبناء وخصوصاً في بيع الحاجيات نوع من الاشتراك بين جماعات يحمي بهذه الطريقة بعضها بعضاً من البطالة ومن الفقر بوضعها سداً يجابه استبداد المتمولين الذين يحتجون المنتوجات او يتجرون بها فيسلبون باثمانهـا الباهظة الشارين سلباً بلا شفقة غير ناظرين الا غاية واحدة وهي الاثراء العاجل · وقد تبين خصوصاً بعد الحرب العالمية التي قلعت من الناس روح الاستقامة والانسانية ان شركات التعاون خير سلاح لمقاومة جشع الرأسماليين ، وقد رفعت حالة الطبقة المتوسطة وخصوصاً الطبقة الفقيرة وحالت دون سقوطها في حفرة البؤس المحفورة لها بقصد استعبادها ، فأذاقتها شيئاً من الرفه والرغد

لم تكن لتستطيعه بجهودها المنفردة ، وحمتها من الامراض القتالة التي كانت تفتك بها في المساكن المظلمة الرطبة القذرة حيث الاجور رخيصة لا يسمح للفقير بوسعه أن يؤوي عائلته الى أحسن منها ، ووزعتها عن إتيان المحرمات وارتكاب الجرائم التي يجر اليها الاعدام والجوع .

بون شاسع بين هذا النوع من الاشتراك وبين الاشتراكية المعهودة اليوم ونموذجها الاشتراكية البولشفية ، وشتان بين أضرار هذه في الهيأة الاجتماعية ومنافع تلك . فلا نخلطن اذاً بين التعاون الاشتراكي والاشتراكية الصيرفة ولنميزن الغث من السمين عندما نقرأ الكتب التي تبحث في مبادئ الاشتراك .

يتمنى كل عاقل محب لوطنه ان تنتشر في بلادنا مبادئ التعاون التي شرحها الاستاذ لاشين شرحاً وافياً في كتابه ، وهي خير وأبقى من الجمعيات الخيرية الموجودة عندنا . فهذه تساعد الفقير المعدم مساعدة محدودة لا كبير تأثير فيها وكثيراً ما انفقت دانق الاحسان في غير محله ، وتلك تسنده كي لا يهوي وتطعمه حتى لا يجوع ، وتحفظ قواه من الوهن وذريته من الانقراض . وحري بكبار مفكرينا ان يشتغلوا بمثل هذه المنافع فيها يرفعون مستوى أمتهم .

عبد الله رعد

عضو المجمع العلمي

حكايات الاطفال

« نشرته المطبعة العصرية بمصر »

لم يؤلف في تربية الاطفال كتاب توفرت فيه جميع الشروط المرغبة للصغار في القراءة والمطالعة مثل هذا الكتاب الذي ألفه الاستاذ كامل الكيلاني . ويظهر انها سلسلة كتب صدر جزؤها الاول مزيناً بالصور المختلفة الألوان والاشكال مرسومة على ورق متين ويتخللها حكايات غاية في السهولة مكتوبة بخطوط ذات حروف تخين مختلفة الحبر من أزرق وأحمر وغيرهما . فنلفت نظر المعلمين والمربين الى هذا الكتاب . « المغربي »

مبادئ الكشفية

اسم كتاب ألفه بالانكليزية (روبرت بونغ) الانكليزي ونقله الى لغتنا العربية السيد بهاء الدين الطباع . وقد تصرف في تعريبه ذاهباً مذهب الكشاف المسلم من حيث اللباس ، العلامات والشعار ونحو ذلك . وهذا الفن (فن الكشاف) حديث النشأة في بلادنا من الوجهتين العلمية والعملية . لكنه آخذ في التقدم رويداً رويداً وهو اذا قارنه حسن التربية الأخلاقية والجد في تحصيل العلم كان منه فائدة عظمى لناشئة البلاد . لانها تبث في نفوسهم روح الرجولة والنجدة والنشاط والايثار وغير ذلك من الأخلاق النبيلة . فنشكر للفاضل عنايته بترجمة هذا الكتاب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نوابغ السريان

رسالة تضمنت محاضرة نفيسة في تراجم نوابغ السريان الذين نبغوا في لغتنا العربية كان ألقاها في حفلة مدرسة حمص السريانية سنة ١٩٣٠ الحبر العالم السيد (سويريوس أفرام) مطران سوريا ولبنان على السريان . وقد جاء في المحاضرة ترجمة نحو ٣٥ فاضلاً من علماء الطائفة السريانية ومعظمهم أطباء وفلاسفة ومؤرخون ومنهم المترجمون الذين نقلوا العلوم القديمة الى لغتنا العربية في عهد المأمون وغيره . فلا غرو اذا كان في مطالعة هذه المحاضرة فائدة لمحبي التاريخ والادب العربي .

نظرة في كتاب

« الفلاحة الأندلسية »

—«»—

كتاب الفلاحة الاندلسية اهم ما اتصل بنا من الكتب الزراعية القديمة بعد كتاب الفلاحة النبطية . وهو تأليف الشيخ ابي زكريا يحيى بن محمد بن احمد المعروف بابن العوام الأشبيلي الأندلسي ممن عاشوا في القرن السادس للهجرة . وقد طبع بانكري هذا الكتاب في مجريط سنة ١٨٠٢ مع ترجمته الى الاسبانية بجاء في جزءين صفحاتها من القطع الكبير .

وترجمه الاستاذ كليمان موله الى الفرنسية وطبعت تلك الترجمة في باريز سنة ١٨٦٥ وذكره دوزي في معجمه ونقل عنه كثيراً من الالفاظ ولا سيما التي لا توجد في معاجم اللغة الاصلية . وذكره ادورد فنديك في كتاب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » . والاستاذ صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة . ولم يفت ذكره احداً ممن الفوا في الزراعة وكانوا على صلة بما تركه الاجداد لنا من المصنفات العلمية لكنني لم اجد ذكراً لابن العوام في كتاب الصلة لابن بشكوال او كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار او بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس لاحمد بن يحيى الضبي وكلها مطبوعة في مجريط . وفات ذكره الاستاذ خير الدين الزركلي صاحب قاموس الاعلام .

ولكتاب ابن العوام شأن كبير لدى علماء الزراعة لأنه يعد اكبر معلمة زراعية في القرون الوسطى . وقد نقل المؤلف عن ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية وعن عدد من المؤلفين المسلمين الذين ضاعت كتبهم الزراعية ولم يتصل بنا شيء منها مثل كتاب ابي عمر بن حجاج المسمى بالمقنع وكتاب الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصال الاندلسي وكتاب الشيخ الحكيم ابي الخير الاشبيلي وكتاب الحاج الغرناطي

ما يسميه الفرنسيون (Pépinière) اي الارض التي تربى فيها الغراس ريثما تنقل الى مستقرها . وتسميها العامة (دندانة ومشتلة). ولفظ المنابت اصح واجمل من لفظ الترمدانات التي لا تستعمل اليوم والتي تظهر عليها العجمة .

واطلق لفظ التغطيس والتكبيس (ص ١٨٢) على ما يسميه الاكارون « التدريك والتدريخ » اي حني غصن شجرة ودفنه في التراب دون فصله عنها فتبرز في الجزء المطمور جذور حتى اذا قطع الغصن وفصل عن أمه يصبح نباتاً مستقلاً محتوياً على جميع صفات الشجرة الاصلية . وهذا العمل يسمى بالفرنسية Marcottage وهو بالعربية العكس وهو ايضاً الترقيد مع التوسع . والغصن المحني يسمى المكبس و بالفرنسية Marcotte .

واذا لم يحن الغصن ولم يدفن في تراب الارض بل وضع حوله اصيص (او تنكة) ملوء تراباً كما يصنع فلاحة بلادنا بالكروم وبأشجار الفصيلة البرتقالية مثلاً فان هذا العمل يسميه ابن العوام الاستسلاف (ص ١٨٧) . وقد وصفه بدقة وسمى الاصيص ظرفاً كأن يكون قصرية او قدراً . ولم اجد لفظة الاستسلاف في الامهات بهذا المعنى او بمعنى يقرب منه . وذكر دوزي في معجمه عن موله الفرنسي الذي ترجم كتاب ابن العوام الى الفرنسية ان الاستسلاف هو المكبس الموضوع في قصرية وذلك خطأ لان ابن العوام اطلق الاستسلاف على الفعل اي على طريقة العكس هذه لا على المكبس .

وسمى الاصيص اي ما تسميه العامة (شقفة زريعة) قدراً واجانة (ص ١٩٩) وقصرية (ص ٣١٨) ومن الغريب انه سماه ايضاً (شقفة فخار) وهي اللفظة الدارجة على لساننا قال في ص ١٩ من ج ٢ « ويجعل ذلك في شقفة فخار » وهي عامية .

واذا قطعت الارض قطعاً تنفصل اعضادها بعضها عن بعض لكي يسهل سقيها فكل قطعة منها تسميها العامة « مسكبة » وقد سماها ابن العوام « حوضاً » قال في ص ٣٩١ « ... ويقطع احواضاً كل حوض ١٢ ذراعاً ... » .

ومما يلفت النظر ان بعض الذين نقل ابن العوام عنهم كأبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفضال الاندلسي كانوا يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية وهي يناير وفبراير الخ وهؤلاء نقلوها عن الكتب الرومية . وبعضهم كانوا يوردون اسماء الاشهر السريانية وهي كانون الثاني وشباط الخ ومنهم ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية . فيتضح اذن ان

استعمال هذه او تلك من اسماء الاشهر كان امراً مألوفاً . والشاميون لا يستعملون اليوم في كتبهم وجرائدهم ومجلاتهم الا الاسماء السريانية اما المصريون فيقتصرون على ذكر الاسماء الفرنجية . ولما كان من الضروري توحيد الثقافة في القطرين وكانت الالفاظ الفرنجية مألوفة لدى المغاربة من العرب والمتعلمين من ابناء الشام والعراق ارى من المفيد ان يستعمل الشاميون والعراقيون اسماء الاشهر الفرنجية في مطبوعاتهم بدلاً من الاسماء السريانية او ان يضعوا هذه بين هلالين بجانب تلك .

وعندما تكون الزروع والغراس كثيفة متآصرة نقلع الضعيفة منها لتجود البقية . فهذا العمل يسمى بالفرنسية Démariage وقد وجدت المصريين يطلقون عليه فعل أخفّ فيقولون أخفّ الزرعَ و يُخفّ الزرع بمعنى يجعل خفيفاً اي يقلل عدد نباته في الارض المزروعة . اما ابن العوام فأنه استعمل لهذا الغرض التفريج ما بين الغراس بمعنى الكشف والتوسيع وهذه اللفظة اصلح من التي استعملها المصريون و كنا استعملناها نحن نقلاً عنهم .

ومن التعبيرات الغريبة التي لم نسمع بها اضافة الفلاحة للحيوان قال في الصفحة الاولى « ... وما يتعلق به من كسبهم في فلاحة الحيوان ... » وقد كرر هذه الاضافة في الصفحة السابعة . و يظهر انه يعني بقوله « فلاحة الحيوان » الفن الذي نسميه اليوم « فن تربية الدواجن » و بالفرنسية Zootechnie

وثمت الفاظ استعملها ابن العوام ما برحت شائعة الى يومنا هذا على السنة الفلاحين ولكن يندر ان تراها في كتاب حديث مطبوع وهي كثيرة مثالها :

ص ١ (وفلاحة الارض تنقسم قسمين بعلاً وسقياً) .

ص ٢١ (تدبير التفاح حتى يثمر في غير إبانه وتدبير غرس العنب حتى يكون حبه دون نوى) . ونحن نستعمل اليوم في الكتابة افعال المعالجة والتهيئة والتحضير وغيرها بدلاً من التدبير مع ان الفعل الاخير كثير الاستعمال في المكالمة وهو فصيح بمعنى الاعتناء والتنظيم .

ص ٣٨ (ولذلك كان وجه الارض اطيب من سائر اجزائها) ونحن نكتب اليوم أجود واصلح ونستعمل لفظة اطيب بلساننا .

حياة الجاحظ (١)

—«»—

تفوتنا نواحٍ كثيرة من نواحي الجاحظ التي تشرع لنا باباً الى الوقوف على تفاريق حياته ، على اننا نستطيع ان نحيط بنبذ غير يسير من هذه الحياة وان لم يكن لنا بهذه الاحاطة مقنع ، فقد نستطيع مثلاً ان نعرف طائفة من امور ميلاد الجاحظ ، وأهله ونشأته ، وابتداء تثقيفه ، وحالات عقله في صباه ، وحرفته في اول امره ، وثروته ، وأعماله ، ولهوه ، واعتنائه بداره ، وأكابر الرجال الذين لازمهم في حياته ، وتعذيبه بسبب صحبته لاحد هؤلاء الاكابر ، ومكاتبتهم له ، وأسفاره الى انطاكية والى دمشق والى مصر ، وآثار هذه الاسفار وطبيعة هذه الآثار ، وعلته في آخر حياته ، وتأثير هذه العلة في بعض كتاباته ، وتعقب الناس له في التماس بعض المطاعن ايام مداراته ايام ، وضجره من لؤم اخلاقهم ، ووفاته .

نعم قد نستطيع ان نعرف هذا كله ، لكن هذه المعرفة لاتنقع غليلاً قياساً الى مايعرفه أدباء الافرنجة من امور كتابهم وشعرائهم وأشباه هذه الطبقات ، على ان أمرنا لا يشبه امرهم ، فان آثار عقولنا مبعثرة وقد ضاع كثير من هذه الآثار وما حفظ منها قد يصعب وصول الايدي اليه ، ولم يكتب لنا ان نكون أمة مجموعة الشمل من قديم الدهر يسلّم كل عصر من العصور نتائج عبقريته الى العصر الذي يليه حتى تطرد هذه العبقرية فيزيد

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٤ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال : بالعلم كان ابي جواداً . يقال : ومن ابوك ، فقل : يموت

من هذا كله نستطيع ان نستنبط أن من أقارب الجاحظ من اشتهر بمحبة العلم وبالملح والنوادر فكان بينهم وبين الجاحظ مشابه في هذا الباب فان الجاحظ طلاب للعلم مفتون بالنوادر .—

هيأته

كان الجاحظ مشوه الخلق وانما قيل له الجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء وكان يقال له ايضاً الحدَقي . ومن جملة اخباره انه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .

تحصيله

أين طلب الجاحظ العلم في صغره

يظهر لنا ان الجاحظ كان في ابتداء امره يحمل اللوح بيده و يغدو على كتابه على نحو ما كانت عليه الحال في هذه الديار من عشرين سنة وعلى نحو حالنا في يومنا هذا فان الكتاتيب لم يبطل امرها في بعض القرى واحياء المدن . واليكم القصة التي رواها لنا وهي من آثار الكتّاب قال[1] :

« وأنا حفظك الله رأيت كلباً مرة في الحي ، ونحن في الكتاب فعرض له صبي يسمى موذياً من اولاد القصابين وهو قائم يمحو لوحه ، فعض وجهه ، فنقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ماظننت انه لا يعيش معه وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتّاب وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينبح الى ان برئ ولا هرّ ولا دعا بماء حتى اذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جرواً ولا عاقاً ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير » .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص ٥) .

ولئن دلتنا هذه القصة على ان الجاحظ طلب العلم في اول امره في الكتّاب مع ابناء القصابين وغيرهم فلقد دلتنا على شيء أعظم من هذا كله فاني ارى فيها اثر عنصر من عناصر عبقرية الجاحظ فأبو عثمان نقريس من صغر امره ؛ والكلمة من كلامه ، والنقريس النظّار المدقق والجاحظ مطبوع على التدقيق لا يريد ان يتفلّت منه امر قبل الاهتمام به ، على ان هذه القصة تشتمل على اشياء غير ما ذكرت فانها تدل على قوة حفظ الجاحظ فقد رواها وهو ابن سبعين بوجه التقريب ، فلم يهمل في روايتها لوناً من الالوان او حركة من الحركات او هيأة من الهيآت ، ولكن فيها غير قوة الحفظ فان كلمته : يمحو لوحه ، تتضمن سراً من أسرار لغته : فهي تشبه الكلمة التي انهمكم عليها منذ اسبوعين : أين نذهب في هذا المطر والبرد .

فبأي كلام نقصح في هذا اليوم عن فكرة مثل هذه الفكرة ، أفنستطيع ان نجد أسهل من هذا التعبير : يمحو لوحه ، على ان هذا المقام لا يتسع للخوض في مثل هذا البحث ولكني أحببت ان أشير الى شأن الآثار التي يبقيها لنا الكاتب مما يتعلق بصباه وبحياته فان هذه الآثار تكشف لنا الغطاء عن كثير من عبقريته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حالات عقله في صباه

وكما عرفنا ان الجاحظ نشأ في الكتّاب فقد عرفنا حالةً من حالات عقله في تلك الصبوة الغامضة فمن هذه الحالات طائفة من أوهامه ، قال[1] :

واما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش فانهم يزعمون ان الخفاش اذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي فما أنسى فزعي من سن الخفاش ووحشتي من قربه ايماناً بذلك القول الى ان بلغت » .

ومن هذه الخرافات التي يري الى الله منها قوله[2] : وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب وهو في ارث منها ان حية يقال لها الدساس تلد ولا تبيض وان أنثى النمور لم تضع نمراً قط الا ومعه أفعى .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص١٦٧) .
(٢) « « (الجزء الرابع ص ٧٥) .

مرحومين يرق لهم الاعداء فضلاً عن الاولياء » .

لبعيد عادةً عن ملابسة السلطان بنفسه ومقاربته بخدمته وخاصة ان كان قد شاهد المحن التي أشار اليها وشاهد بين حأت وسنتكلم عليها في الآتي .

ان رجلاً يقول في مدح التجار [١] :

« اودع الناس بدناً واهنأهم عيشاً وآمنهم سرباً ، لانهم في أفنيتهم وكالملوك على أسرتهم يرغب اليهم اهل الحاجات وينزع اليهم ملتمسو الباعات لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ولا يستعبدهم الضرع لعاملاتهم . »

لطامح الى أفق يشبه افق التجار يتمتع فيه بدعة البدن وهناء العيش وأمن السرب ، ولئن نزعت بالجاحظ نفسه عن عمل يجد فيه الذل والملق والضرع فربما نزعت به هذه النفس الى عمل يكون فيه صاحب الامر النافذ يضرع الناس اليه و يذلون له بدلاً من ان يكون الضارع الذليل ، وما يتيسر له مثل هذا العمل الا في ظلال الخلافة فكأنما وسوست له نفسه ان يذوق لذة هذه الخلافة فاذا صحت الرواية التي رواها ابن عساكر في تاريخه وهذه هي :

«دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا ابا عثمان ، كيف حالك ، فقال الجاحظ سألتني عن الجلة [٢] فاسمعها مني واحداً واحد ، حالي ان الوزير يتكلم برأيي و ينفذ امري ، ويواتر الخليفة الصلات اليّ وآكل من لحم الطير اسمنها وألبس من الثياب الخرها وأجلس على ألين الطبري وأتكئ على هذا الريش ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال له الرجل الفرج ما أنت فيه ، قال : بل احب ان تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبدالملك بأمري ويختلف اليّ ، فهذا هو الفرج ! » .

إذا صحت هذه الرواية فهمناها ان الجاحظ لم يجد لذة في التصدير في ديوان الرسائل لأنه لم يعمل بأمره ، وانما كان يعمل بأمر الخليفة ، على حين يجد لذته في الانفراد بالامر والنهي ، فهل افصح عن أمانيه لما قال : [٣]

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني ص ٢٤٨) .

(٢) في الاصل سألتني عن الجلة ، وفي نسخة عن الجملة .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٣

« وليس شيء الذ ولا أسر من عز الامر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن عقد المنن في اعناق الرجال والسرور بالرئاسة وبثمرة السيادة لان هذه الامور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس . »

وكيف كان الامر فاننا نحمد الله الذي لم يأته بالفرج ، فلو أتاه لحرمت العربية شيئاً غير يسير ، بيد انه ان فاته الرياسة من سبيل السلطان فقد اتته هذه الرياسة منقادة اليه عن سبيل الادب ولا شك في ان الادب اخلد اثراً من كل سيادة وسلطان !

فالذي نراه ان الجاحظ عاش في نعمة وربما اعطى نفسه حقها من اللهو فقد كان المكي يعشق جارية يقال لها سندوة ثم تزوجها نهارية وقد دعاه الجاحظ الى منزلها غير مرة .[1]

اعتناؤه بداره

عاش الجاحظ في نعمة وقد بقيت منه آثار فيها شيء يدل على التحقيق العلمي لكن هذا الشيء لا يخلو من الدلالة على اعتناء الجاحظ بداره ، فمرة كان يصرف هذه العناية الى غرس الاشجار ، فمن قوله :[2]

« ولقد اردت ان اغرس في داري أراكة فقالوا لي : ان الاراك انما تنبت من حب الاراك يغرس في جوف طين في قواصر و يسقى الماء اياماً فاذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين وضعت القوصرة كما هي في جوف الارض وتكن الى ان تصير في جوف الارض فان الذر تطالبه مطالبة شديدة وان لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها فعمدت الى مشارات من صفر من هذه المسارح وهي في غاية الملاسة واللين فكنت اضع القوصرة على الترس الذي فيه الاملس فاجد فيه الذر الكثير فكنت انقل المشارة من مكان الى مكان فما أفلح ذلك الحب . — »

ومرة كان يصرفها الى تعليق الابواب الثمينة ، فمن هذا قوله :[3]

« ومثل ذلك قول نجار كان عندي دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له : ان

(١) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٣٨
(٢) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٢٥
(٣) — كتاب الحيوان — الجزء الثالث — ص ٨٥

إحكام تعليق الباب شديد ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد وقد يذكر بالحذق في نجارة السيوف والقباب وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الاحكام والقباب عند العامة اصعب ولهذا امثال فمن ذلك ان الغلام والجارية يشويان الجدي والحمل وهما يحكمان الشيء وهما لا يحكمان شيء جنب ومن لا علم له يظن ان شي البعض اهون من شي الجميع فقال لي : قد احسنت حين اعلمتني انك تبصر العمل فان معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق فدأ فه فاحكم تعليقه ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب اذا اردت اصفاقه فقلت له أكره ان اجلسك الى ان يذهب الغلام الى السوق و يرجع ولكن اثقب لي موضعها فلما ثقبه واخذ حقه ولأني ظهره للانصراف والتفت الي فقال : قد جودت الثقب ولكن انظر اي نجار يدق فيه الرزة فانه ان اخطأ بضربة واحدة شق الباب فعلمت انه يفهم صناعته فهماً تاماً . — »

من هذا كله تستنتجون ان الجاحظ لم يكن اسير سواء أكان هذا الامر صغيراً أم كان كبيراً فهو لا يشبه بعض العلماء الذين تقوى فيهم ملكة وتضعف ملكات حتى يكاد يصل بهم الضعف الى البلاهة ، وانما هو كامل من الكملة .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملازمته لاكابر الرجال — من هم الرجال الذين لازمهم في حياته .

قال ياقوت في معجم الادباء : [1]

« وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن احمد بن ابي دواد للعداوة بين احمد ومحمد ، ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل له لمَ هربت فقال : خفت أن اكون ثاني اثنين اذ هما في التنور ، يريد ما صنع بمحمد وادخاله تنوراً حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه ، فعذب هو حتى مات يعني محمد ابن الزيات . — »

من هو محمد بن عبد الملك ومن هو احمد بن ابي دواد وما هي العداوة بينهما . [2]

(١) معجم الادباء — الجزء السادس — ص ٥٧
(٢) اعتمدت في الكلام عليها على تاريخ ابن خلكان . —

اما محمد بن عبد الملك فهو أبو جعفر المعروف بابن الزيات وزير المعتصم وهذه قصة وزارته :

كان احمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال له المعتصم : ما الكلأ فقال لا اعلم ، وكان قليل المعرفة بالادب ، فقال المعتصم : خليفة امي ووزير عامي !

وكان المعتصم ضعيف الكتابة ثم قال : ابصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد ابن الزيات فادخلوه اليه فقال له : ما الكلأ ، فقال : الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطباً فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم انواع النبات فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه وبسط يده .

ولما مات المعتصم وقام بالامر ولده الواثق هرون أقر الواثق ابن الزيات على ما كان عليه في ايام المعتصم بعد ان كان ساخطاً عليه في ايام ابيه ، وحلف يميناً مغلظة انه ينكبه اذا صار الامر اليه ، فلما ولي أمر الكتاب ان يكتبوا ما يتعلق بامر البيعة فكتبوا فلم يرض بما كتبوه فكتب ابن الزيات نسخة رضيها وأمر بتحرير المكاتبات عليها . فكفر عن يمينه وقال : عن المال ، والفدية عن اليمين عوض وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

فلما مات الواثق وتولى المتوكل كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء وسببه انه لما مات الواثق بالله اخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق واشار ابن ابي دواد الآتي ذكره بتولية المتوكل وقام في ذلك وقعد حتى عممه بيده والبسه البردة وقبله بين عينيه وكان المتوكل في ايام الواثق يدخل على الوزير ابن الزيات فيتجهمه الوزير ويغلظ له في الكلام متقرباً بذلك الى قلب الواثق فأضمرها المتوكل في نفسه فلما ولي الخلافة خشي ان نكبه عاجلاً ان يستر امواله فيفوته فاستوزره ليطمئن وجعل ابن ابي دواد يغريه ويجد لذلك عنده موقعاً حتى قبض المتوكل على ابن الزيات فلم يجد من جميع املاكه وضياعه وذخائره الا ما كانت قيمته مائة الف دينار فندم على عمله وقال لابن أبي دواد : اطمعتني في باطل وحملتني على شخص لم اجد عنه عوضاً .

كان ابن الزيات قد اتخذ في ايام وزارته تنوراً من حديد واطراف مساميره المحدودة الى الداخل وهي قائمة مثل رؤس المسال وكان يعذب فيه المصادرين وارباب الدواوين

المطلوبين بالمال ، فكيفما انقلب واحد منهم او تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك اشد الالم ولم يسبقه احد الى هذه المعاقبة وكن اذا قال له احد منهم ايها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة .

فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله في التنور وقيّده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال ابن الزيات : يا امير المؤمنين ارحمني ، فقال له المتوكل : الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس فلما كان في الحبس طلب دواة وبطاقة فأحضرتا اليه فكتب :

هي السبيل فمن يوم الى يوم كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعن رويداً انها دول دنيا تنقل من قوم الى قوم

وسيرها الى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها الا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر باخراجه فجاؤا به اليه فوجدوه ميتاً وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وكانت مدة اقامته بالتنور اربعين يوماً فهذا هو التنور الذي خاف الجاحظ ان يكون فيه ثاني اثنين .

ولكن هل نجا الجاحظ من عذاب ابن ابي دواد بعد موت صاحبه ابن الزيات ، اظن انه لم ينج من شيء من ذلك وقبل ان نبين ما صنع به ابن ابي دواد لا حرج علينا ان أوجزنا في كلمة على ابن ابي دواد .

قال ابراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الانصار ليلة العقبة فاختلفوا في ذلك ودخل احمد بن ابي دواد فعدّهم واحداً واحداً باسمائهم وكناهم وانسابهم فقال المأمون : اذا استجلس الناس فاضلاً فمثل احمد فقال احمد : بل اذا جالس العالم خليفة فمثل امير المؤمنين الذي يفهم عنه و يكون أعلم بما يقول منه .

هذا هو احمد بن ابي دواد !

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن ابي دواد قاضي القضاة وعزل يحيى بن اكثم وقد خصّ به أحمد بن ابي دواد حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً الا برأيه .

ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن ابي دواد عنده ولما مات الواثق بالله وتولى اخوه المتوكل فلج ابن ابي داود في اول خلافته فولي موضعه ولده ابو الوليد محمد .

وكثر ذامّوه وقل شاكروه واستمر على مظالم العسكر والقضاء الى سنة سبع وثلاثين ومائتين فسخط المتوكل على القاضي احمد وعلى ولده محمد وصرف ولده عن المظالم ثم صرفه عن القضاء واخذ من الولد مائة الف وعشرين الف دينار وجوهراً بأربعين الف دينار وسيّره الى بغداد من سر من رأى وفوّض القضاء الى القاضي يحيى بن اكثم الصيفي ٠

كان بين قاضي القضاة احمد بن ابي دواد وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء وقد هجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد ابياتها سبعون بيتاً فبلغ خبرها القاضي احمد فقال :

احسن من سبعين بيتاً هجا　　جمعك معناهن في بيت
ما احوج الملك الى مطرة　　تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك ويقال ان بعض اجداد القاضي احمد كان يبيع القار فقال :

ياذا الذي يطمع في هجونا　　عرّضت بي نفسك للموت
الزيت لا يزري باحسابنا　　احسابنا معروفة البيت
قيرتم الملك فلم ننقه　　حتى غسلنا القار بالزيت

http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعذيبه

قلت : لم ينج الجاحظ من شر ابن ابي دواد لأنه كان منحرفاً عنه ، ملازماً لعدوه ابن الزيات ٠ فماذا صنع به ابن ابي دواد ؟

قال ابو عبدالله المرزباني [1] :

« حدث اسحاق الموصلي وابو العيناء قال : كنت عند احمد بن ابي دواد بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً وكان من اصحاب ابن الزيات وفي ناحيته ، فلما نظر اليه قال: والله ماعلمتك الا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة، معدداً للمساوي ومافتّني باستصلاحي لك ولكن الايام لاتصلح منك [2] لفساد طويتك ورداءة دخلتك وسوء اختيارك وتغالب

(١) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس ص ٥٨

(٢) في الاصل : لا تصلح منك الا لفساد طويتك ٠٠٠ فأظن ان « لا » زائدة فلا محل لها ٠

طبعك فقال له الجاحظ: خفض عليك ايدك الله فوالله لئن يكون لك الامر عليّ خير من ان يكون لي عليك ولئن اسيء وتحسن أحسن عنك من ان احسن فتسيء، وان تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني، فقال له ابن ابي دواد: قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك امام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر، ما تأويل هـذه الآية: وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة، ان اخذه اليم شديد. قال تلاوتها تأويلها اعز الله القاضي، فقال: جيئوا بحداد، فقال: اعز الله القاضي، ليفك عني او ليزيدني فقال: بل ليفك عنك، فجيء بالحداد فغمزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ و يطيل امره قليلاً فلطمه الجاحظ وقال: اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة فضحك ابن ابي دواد واهل المجلس منه، وقال ابن ابي دواد لمحمد بن منصور وكان حاضراً: انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه ثم قال يا غلام، صر به الى الحمام وامط عنه الاذى واحمل اليه تخت ثياب وطويلة وخفاً فلبس ذلك ثم اتاه فتصدر في مجلسه ثم اقبل عليه وقال: هات الآن حديثك يا ابا عثمان».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مكانته لديهم

هذه طائفة من اكابر الرجال الذين كان يلازمهم ويتردد اليهم وقد بلغ من استئناس محمد بن عبد الملك الزيات بالجاحظ. ان ابا عثمان كان يأكل معه في يوم من الايام فجاؤا بفالوذجة فتولع محمد بالجاحظ. وأمر ان يجعل من جهته مارق من الجام فأسرع الجاحظ في الاكل فتنظف ما بين يديه، فقال ابن الزيات: تقشعت سماؤك قبل سماء الناس، فقال الجاحظ: لأن غيمها كان رقيقاً[1].

ولقد رغب في مجالسه الامراء والخلفاء وصحب هؤلاء الامراء في أسفارهم وقد كانوا يكاتبونه ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي استوزره المتوكل وأمره على الشام وامره ان يستنيب عنه وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة.

وقد كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر

(١) تاريخ ابن عساكر.

داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة ، قال ابوعفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسماعيل القاضي [1] .

ومن رسائل الفتح بن خاقان الى الجاحظ كتاب كتبه اليه يقول في فصل منه [2] : « ان امير المؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسك لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به ، ومتوفر عليه ، وقد كان ألقى اليّ من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به اليّ وكن من جدا به على نفسه وتنال مشاهرتك قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك سنة كاملة مستقبلة وهذا مما لم تحتكم به نفسك وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ولولا اني أزيد في مخيلتك لعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام » .

ولقد مدح الجاحظ جماعة ، منهم ابراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري الكاتب وكان والياً على الاهواز ، وابوالفرج نجاح بن سلمة وستنظر في شعره وكان يكاتب جماعة منهم ابراهيم بن المدبر وكان ابراهيم هذا ينبسط مع ابي عثمان وكانا يجتمعان في كل ثلاثة ايام .

أسفاره

فلنصحب الجاحظ في أسفاره ولننقب عن الآثار التي خلّفها بعد هذه الأسفار ، فقد كان ابوعثمان جوّاب آفاق ، كأنه دحا الارض من خبرته بها ، فقد دخل البلدان في صحارى جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك وجارى الطرق ودخل البراري وأمعن فيها وضرب الى المواضع الوحشية [3] .

ومن الذي يخامره شك في نعمة السفر ، ونتائجه في الأدب ، فقد يكون الضرب في مناكب الارض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور

(١) فوات الوفيات (الجزء الثاني) . (٢) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس) ص ٧٢ . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ١٥)

ومتباين الالوان مما يكون مادة لرجال العبقرية يستمدون منها في الشعر والتصوير ، فقد اقتبس (شاتو بريان) من سفره الى اميركا صوراً شتى وألواناً غريبة أسبغت على فكره وعلى لغتـه نعمة الشباب ، ومن أراد ان يعرف ماالذي أوحاه السفر الى « لوتي » فليقرأ كتبه التي صوَّر فيها مازاره من مختلف الأصقاع فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد فأحيا في كتبه مصر القديمة والافريقية المحرقة وقسطنطينية الساحرة وكان لبلاد فارس ولديار الشـام صورة في هذه الكتب ، وأحيا عواصف بحر من البحور ولذّات جزيرة من الجزائر ، وكان يمزج عواطفه بكل ماوقعت عليه عينه .

ولو نظرنا في أدبنا نفسه لرأينا للسفر اثراً في بعض هذا الأدب. فلو لم تخضر الهموم رحل ابي عبادة البحتري فيوجه عنـه الى (ابيض المدائن) لما كان لنا من شعره هذه السينية الخالدة التي لانجد سينية أفضل منها في شعر العرب .

اي شيء من ايوان كسرى لم يعرضه علينا البحتري ، أفاته شيء من صورة انطاكية ، أم فاته شيء من مواثل المنايا وتزجية الصفوف واخضرار لباس الجنـد واصفراره وعراك الرجال بين يدي كسرى واشاحتهم برمح او الاحتهم بترس فكأنهم احياء وكأنهم أموات .

أم فاته شيء من وصف مدامة كأنها مجاجة الشمس او كأنها ضوء الليل حتى حار البحتري في هذه المشاهد كلها واغتلى ارتيابه في العسكر فكانت بدء تنقرام بالكس فليس يدري أهو في حلم قد أطبق عينيه على الشك ام هي امان غيرت ظنه فما تمالك في محر هذه المشاهد وروعة هذه الصور ان اعانهـا بدموعه فبكى على ايوان يزَّ من بسط الديباج واستلَّ من ستور الدمقس لم يكن بانيه نكساً في الملوك ، وصبا الى قيان المقاصير بين حواء ولمساء ، وما تمالك ان بكى على رباع عمرت دهراً للسرور فصارت هذه الرباع للتعزي والتأسي !

ولو لم يغرِ المهلبي شعراء بغداد بابي الطيب المتنبيّ حتى تبـاروا في هجائه وأسمعوه مايكره وتماجنوا به وتنادروا عليـه لما اتخذ المتنبيّ الليل جملاً وفارق دار السلام متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد والى ابي شجـاع عضد الدولة فكان من رحلته الى بلاد فارس هذه الابيات التي وصف بها شِعْب بوَّان فقال :

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملاعب جنة لو سار فيهـا سليمان لسار بترجمان

طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كرمن، من الحران

غدونا ننفض الاغصان فيها على أعرافها مثل الجمان

فسرتُ وقد حجبن الحرَّ عني وجئن من الضياء بما كفاني

والقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان

لها ثمر تشـير اليك منـه باشربة وقفن بلا اوان

وأمواه تصل بهـا حصاها صليل الحلي في ايدي الغواني

وكان لنا من هذه الابيات صور ناطقة في الوصف أضفناها الى ميراثنا الأدبي ·

فالسفر مادة من مواد التصوير والشعر ، وفيه نعمة ربما كانت اكبر من هذه النعم كلها ، فما أحسن ماقاله احد كتاب الافرنجة في هذا المعنى ، وليس يحضرني اسمه فقد قال : يسافر الانسان كي ينسى الحقائق · وفي كلمة هـذه معنى بعيد ، فكأنه يريد ان يقول ان الحياة تشتمل على حقائق لاتخلو من ايلام وايجاع فاذا سافر المرء نسي ألمها ، وذهل عن وجعها ، لان طرفه يلهو بامور تكاد تكون عزاء النفس وسلوانها ·

واني اعتقد ان من جملة الامور التي أعانت الجاحظ على حياته المنبسطة كثرة أسفاره التي كانت تجدّد من قوة نفسه ونشاطها ·

سافر الجاحظ الى انطاكية والى دمشق والى مصر ووضع كتاباً اسمه : (كتاب البلدان) وغير بعيد انه وصف فيه الامصار التي عرفها ولكن هذا الكتاب لم يسقط الينا فلسنا نعلم خصائص الآثار التي خلّفها لنا بعد رحلته ، وانما نعرف طائفة من هذه الآثار مبعثرة في تضاعيف ماانتهى الينا من كتبه ، فاذا حكمنا عليه من هذه الناحية فلا يكون حكمنا قاطعاً ، وانما يتعلق هذا الحكم بما وصل الينـا من آثار أسفاره دون غيرها مما لم نطلع عليه ·

فمن آثار سفره الى انطاكية قوله[1] :

« اني رأيت الثلث الاعلى من منارة مسجد انطاكية أظهر جدّة من الثلثين الاسفلين

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٥١) ·

فقلت لهم : مابال هذا الثلث الاعلى أجدّ وأطرى ، قالوا : لأن تسميتنا ترفع من بحرنا هذا فكان لا يمر بشيء الا أهلكه فرّ على المدينة في الهواء محاذياً لرأس هذه المنارة وكان أعلى مما هي عليه فضربه بذنبه ضربة خرقت من الجميع اكثر من هذا المقدار فأعادوه بعد ذلك ولذلك اختلف في المنظر » .

فمن هذا الكلام يظهر لنا ان ديدن الجاحظ. في كل امر من الامور التدقيق والتنقيب فكانت له نفس طُلَعة لا تريد ان يفوتها شيء .

اما آثار سفره الى دمشق والى مصر فانها أغرب وأعجب ، وقد كان سافر الى دمشق مع الفتح بن خاقان وذكر هذه الحكاية(١) :

« واحتاج أصحابنا الى التسليم من عض البراغيث ايام كنا بدمشق ، ودخلنا انطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرّة فلم ينتفعوا بذلك لان براغيثهم تمشي ، وبراغيثهم نوعان : الابجل والبرد ، انما سموا ذلك الجنس على شبيه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد البرمكي فان يحيى زعم ان البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقاً كما يعرض الطيران للنمل وكما يعرض الطيران للدعاميص فان الدعاميص اذا انسلخت صارت فراشاً فكأن اصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً وكانت له بلية أخرى وذلك ان الذي تسهره البراغيث لا يستريح الا ان يقتلها بالعرك والقتل والا ان يقبض عليها فيرمي بها من فوق السرير فيرى انهن اذا صرن عشرين كان أهون عليه من ان تكون احداً وعشرين ، وكان الرجل اذا رام ذلك من واحد منها انثنت بيده وكانوا ملوكاً ومثل هذا شديد على أمثالهم فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني وجعلوها طويلة الابدان والاردان فناموا مستريحين . »

هذه الآثار التي تركها لنا بعد سفره الى بلد يكاد يكون جنة الدنيا فلسنا ندري اتفق الجاحظ بغوطة دمشق ام نظر الى مسجدها ، وهو يعلم مقدار افتخار الدمشقيين بمسجدهم فمن قوله :(٢)

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ١١٣) .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الاول —

« وقول الدمشقيين ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا الا أثار لنا التأمل واستفرج لنا التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ومانـدري اجواهره مقطعاته اكرم في الجواهر ام تنضيد اجزائه في تنضيد الاجزاء» .

انه ليعلم هذا كله فهل استماله شيء من المسجد ومحرابه وقبة مصلاه وجواهر مقطعاته أم آلمه عض البراغيث في دمشق فشغله هذا العض عن كل حسن من محاسنها .

على انه قد اشار الى المسجد اشارة خفيفة فقال : (١)

« وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ومن رآه فقد علم ان احداً لا يرومه وان الروم لا تسخوا انفسهم به فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّله بالجلال وغطاه بالكرابيس وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب الى ان ذلك الصنيع مجانب لسنة الاسلام وان ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع وان البال لا يكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه و يعترض عليه . »

ولئن ابقت دمشق في ذهنه صورة البراغيث فقد ابقت مصر في هذا الذهن العجيب صورة أبشع لمن قوله : (٢)

« كنت بحجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحد نحو ارزة . »

براغيث وعقارب !

هذا ما عرفناه من آثار سفره الى مصر ودمشق ؛ فاذا كان كلامه في كتاب البلدان وفي رسالة مصر من هذا النمط فلم يكن الجاحظ في اسفاره شاعراً ، اي لم يصور لنا ألوان التربة التي زارها تصويراً فيه حياة وشعور وانما كان يبحث عن حقيقة من الحقائق العلمية فلم يبعج بطن العقرب على سبيل اللهو وانما فعل هذا واضرابه على سبيل التحقيق . وسننظر في هذا في كلامنا على تحقيقه وتجريبه . على ان صاحب صبح الاعشى ذكر ان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الاول — ص ٢٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للجاحظ رسالة في مدح مصر قال فيها : وانما سميت مصر بمصير الناس اليها ، فاين هذه الرسالة [١] ؟

***

علته

كيف انطفأ نور هذا العقل الذي تطلع في قرن متكامل الى كل ضرب من ضروب المعرفة حتى ازدحمت فيه المعارف على متباين اشكالها فكان لنا من مزدحمها كنز لا يفنى مجبس الليالي .

حكى ابو علي القالي عن ابي معاذ عبدان الخولي المتطبب قال : [٢]

دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده . وقد فلج فلما اخذنا مجالسنا اتى رسول المتوكل اليه ، فقال : وما يصنع امير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ثم اقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، احدهما لو غرز بالمسال ما احس والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث واكثر ما اشكوه الثمانون . »

ولقد حدث يموت بن المزرع شبه هذا الحديث فقال : [٣]

وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة فقال لمن اراد حمله : وما يصنع امير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل حائل . »

وحدث المبرد قال : [٤]

دخلت على الجاحظ في آخر ايامه ، فقلت له كيف انت ، فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقر به لآلمه واشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ثم انشدنا :

---

(١) الجزء الثالث — ص ٣١٨

(٢) امالي القالي — الجزء الاول — ص ٥٠

(٣) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

(٤) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

أترجو ان تكون وأنت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لوقرض بالمقاريض لما احس به من خدره وشدة برده .

وكان يقول في مرضه[1] : اصطلحت على جسدي الاضداد ان اكلت بارداً اخذ برجلي وان أكلت حاراً اخذ برأسي ، أنا من جانبي الايسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت ومن جانبي الايمن منقرس فلو مر به الذباب لتألمت وبي حصاة لا ينشرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون سنة . »

هذه جملة الروايات التي تتعلق بعلته ، وقد أثر هذا المرض في كتاباته حتى قال في كتاب الحيوان ، وكتاب الحيوان ألفه في الربع الاخير من عمره[2] :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، اول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان والثالثة طول الكتاب الى ان قال :

فان وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غيره موضعه فلا تنكر بعد ان صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي » .

شكواه من اللؤم

ولكن الناس لم يسامحوه في هذه الحالة التي صوّرها فكانت طائفة منهم يتعقبونه ملتمسين المطاعن والمغامز فلم ينج الجاحظ من داء العبقرية ، وأريد بهذا الداء شر جماعة لاتهدأ أعصابهم الا اذا تقلبوا في المناهش والملاسع .

فمن قول ابي عثمان في هذه الجماعة[3] :

« فان كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ومدارسة العلم يقفون من جميع هذا الكتاب (كتاب الحيوان) على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه ، وناله بعض الاضطراب او كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم

(١) مرآة الجنان — الجزء الثاني — ص ١٦٤ . (٢) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٢) .

والمثالث الفجر ومن خطإ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى أمله لو تدبره بعقل غير مفسد ونظر غير مدخول وتصفحه وهو محترس من عوامل الحسد ومن عارض التبرع ومن أخلاق من عسى ان يتسع في القول بمقدار ضيق صدره ويوصل لسانه ارسال الجاهل بكنه مايكون منه ولو جعل بدل شغله بقليل مايرى من المذموم لنقله بكثير مايرى من المحمود كان ذلك أشبه بالادب المرضي والخيم الصالح وأشد مشاكلة للحكمة وأبعد من سلطان الطيش وأقرب الى عادة السلف وسيرة الاولين وأجدر ان يهب الله تعالى له السلامة في كتبه والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ومقارعة اعدائه » .

من هذا يتبين لك ان الفالج قد اثر في تأليف الجاحظ حتى انبرت جماعة لتطلب اللفظة السخيفة والكلمة الضعيفة في كتاب الحيوان فكان يضطر الى مداراتهم واستمالتهم والى كثرة الاعتذار فمن قوله[1] :

« ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب الى هذه الرياضة الطويلة والى كثرة هذا الاعتذار حتى كأن الذي أفيده اياهم استفيده منهم وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » .

فما زال الجاحظ في خاتمة حياته يشكو مرة فالجه ومرة شيئاً أشد من الفالج وهو لؤم بعض الأخلاق حتى ورد الخبر بموته .

وفاته

حدثت احمد بن يزيد بن محمد المهلبي عن ابيه قال[2] :

قال لي المعتز بالله : يايزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ، قال وذلك سنة ٢٥٥ ، قال لي المعتز : قد كنت أحب ان اشخصه اليّ وان يقيم عندي ، فقلت له : انه قد كان قبل موته عطلاً بالفالج » .

وكان موته بالبصرة وقد قال فيه ابو شراعة :

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص٥١) . (٢) تاريخ ابن عساكر .

في العلم للعلماء ان يتفهموه مواعظ
واذا نسيت وقد جمعت علا عليك الحافظ
واقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضت ايامه وهو الرئيس الواعظ

* * *

هذه خلاصة حياة تقلّب صاحبها في كل أفق من آفاق المعيشة ، وخبر كل امر من امور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزّه ، ولقي اجلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات بمجامعهـا فلم يخف عليه شيء من لذة السفر ولذة العلم ومشابهها ، ومدّ الله في أجله فكأنه يقول :

متى يأت هذا الموت لانبق حاجة لنفسي الا قد قضيت قضاءها

ان حياة مثل حياة الجاحظ مزدحمة الحوادث ، قد يجد الانسان في دقائقها كثيراً من العبر ، ولكني لا أمر الا بعبرة واحدة أجعلها خاتمة الكلام على هذه الحياة ، لوجودنا أشباه هذه العبرة في حياة طائفة كبيرة من رجال العبقرية .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حبس الجاحظ نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل وكان همه الا بعد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ، على نحو ما نبينه في الاشارة الى تحقيقه العلمي ، فما هو جزاء هذه العناية بالأدب وبالعلم ، جزاء هذا كله تعقب الناس اياه وهو في أشدّ حالة من الحالات ، واي حالة أشد من الفالج ، فقليلاً مانسامح وقليلاً مانلاين ، فقد طبعنا على التعقب ، ولهجنا بما يؤدي اليه من لواذع القول ولواسع اللفظ ، ننظر الى سيئة تسترها حسنات فلا تفترق العين الا هذه السيئة وتغضي على الحسنات فتمحي عنها او تتعامى ، وقد ألفنا المحاسن في كثير من الأحوال فلا نحب ان يبرح الى جنبنا بارح ، هذه طبيعتنا ، وعبثاً نحاول ان نهذّب هذه الطبيعة ، هل هذّب العلم من أخلاقنا ، أفلا نزل في هذه الأخلاق أشباه أجدادنا الذين كانوا يأوون الى الكهوف والغيران في شباب البشرية !

نعم ، هذا مالقيه الجاحظ من الناس في أواخر ايامه ، وأغرب من هذا كله انه ربما

ألّف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته حتى كان ينسب كتبه الى من تقدم عصرهم فيأتيه اولئك الطاعنون باعيانهم فيكتبون كتبه المنسوبة الى غيره بخطوطهم و يتدارسونها بينهم و يتأدبون بها و يستعملون الفاظها ومعانيها ، ولو علموا ان هذه الكتب ألفها الجاحظ نفسه لما كان منهم الا الطعن والقدح !

وقبل ان انظر في سيرة الجاحظ كنت أنظر في سيرة المتنبي ، فما أشبه الذي كان يلقاه الجاحظ بالذي كان يلقـاه المتنبي فأبو عثمان شكا الحسد ، وابو الطيب لم يسلم من شر الحساد .

كلنا نعلم ان اباالطيب كان في ابتداء امره في خشونة من عيشه ورقة من حاله يشتهي كل شيء ، يشتهي الناعم من الملابس والكريم من المطايا . توفي ابوه وهو فقير فضرب في مناكب الشام التماساً للرزق وكثيراً ما أشار الى فقره والى إخفاقه في السعي والى كساد شعره في أسواق بعض الممدوحين ، ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين وكيد الكائدين ، فكان ضجره من هذه الأخلاق اللئيمة يطفح على جنبات شعره ، ولقد أفضى الامر بحساده الى ان شمتوا بموت جدته لانه كان يذهب في حبها كل مذهب .

لم يسلم المتنبي من شر الحساد وهو فقير فأخلق به ان لا يسلم من هذا الشر بعدان غرق في مكارم سيف الدولة الباهرات وبعد ان أنعل أفراسه عسجداً بنعمى ملك حلب فقد آلم كثيراً من الشعراء وكثيراً من رجال اللغة ، فكانت شكوى الحسد تفيض في شعره وربما تمنى القوم موته فنعوه وهو حي ولكنه كان ينتفض من بعد منعاهم فيزول القطن والكفن .

ترك المتنبي سيف الدولة واتصل بكافور الاخشيدي فاندفع في شكوى الحسد وغادر كافوراً فوقع في بغداد في شر شعرائها الذين نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه .

لم يسلم المتنبي من داء العبقرية في كل طور من أطواره ولئن كان الجاحظ يهزأ بحساده فلم يكن المتنبي أقل هزأ منه بهؤلاء الحساد فلم يفكر في واحد منهم ورب بيت

قاله في الشعر بعض بهم أشد من وقع السهام في غلس الدجى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجـد مراً به الماء الزلالا

* * *

نظرت في سيرة الجاحظ وفي سيرة المتنبي وكنت أقرأ من ايام قليلة مقالاً أنشأه الكاتب الفرنسي (زولا) في وصف نعش الشاعر (فلوبر) .

لم يمش حول نعش هذا الشاعر الا ثلاثمائة رجل من باريز فقد غاب كثير من الذين كان يجب عليهم ان لا يغيبوا ، ومدينة الشاعر نفسه وهي (روان) لم تشيع اشهر ولد من أولادها فقد قالوا ان اهل (روان) انما هم تجار يحقرون من الادب على ان في (روان) كثيراً من الاساتيذ والمحامين والاطباء والشباب المستنير ، ان فيها من قرأ رواية مادام بوفاري فلم يتحرك واحد منهم ، فلم يصحب النعش الا مائتا رجل من (روان) وكثير من الناس كانوا ينظرون الى النعش على سبيل اللهو فلم يكن على وجه واحد منهم اثر من آثار الحزن والحقيقة ان اربعة اخماس اهل روان لا يعرفون فلوبر والخمس الآخر كانوا يكرهونه وقد ختم (زولا) مقاله المبكي بهذه العبارة : هذا هو المجد .

نعم هذا هو المجد ، وهذا ما يصادفه رجال العبقرية في حياتهم وفي مماتهم !

أهدأت أفكار هذه الطبقة من الناس في عصر من العصور ؟ أفنال رجال العبقرية ما يستحقونه من الجزاء ؟ استغفر الله . انهم لا يريدون جزاء ولا شكوراً انهم اجل من كل جزاء ومن كل شكور ، وانما الذي يريدونه ان نكف عن نهشهم وعن لسعهم هذا هو كل جزائهم .

ومن البلاهة ان يبلغ من وساوسنا ان نعتقد أن مجرد الطعن على بارع من البارعين يحطمه تحطيماً أحطم الجاحظ طعن الطاعنين ؟ أهدم المتنبي نهش الناهشين ؟ ألم يذهب اولئك الناهشون اللاسعون بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق الا ذكر الجاحظ والا ذكر المتنبي !

اننا نستطيع ان نهدم الجاحظ واننا نستطيع ان نحطم المتنبي والسبيل الى ذلك ان نأتي بأدب ابرع من ادب الجاحظ وبشعر اروع من شعر المتنبي . فنعفي يومئذ على آثارهما ، فاما الهذيان وأشباهه فيذهب جفاء واما النبوغ فيمكث في الارض !

البستان

« في الميزان »

—«»—

البستان معجم عربي وضعه الشيخ اللغوي عبد الله البستاني ، لتتداوله ايدي المحققين عند احتياجهم الى مراجعة بعض الألفاظ الضادية ، وقد قرظته بعض الجرائد والمجلات ، ونسي النقدة انهم قد اوتمنوا على لغة آبائهم ، وحفظها من الفساد وان لا ينظروا الى الوجوه ولا الى الصداقة ، ولا الى كل شيء يفكك عرى هذا اللسان البديع البناء المحكم الأركان · على اننا كنا قد نقدنا بعض النقد المجلد الاول من هذا الديوان ليكون المجلد الثاني أتقن تأليفاً وأسد انشاء وذلك في مجلتنا لغة العرب (٦ : ٦٨ وما يليها) وظن بعضهم ان في الحوباء حوبة ، تبرئة لمديحهم المكيل كيلاً ، اذ غايتهم غير الغرض الذي رمينا او نرمي اليه · وقد أشرنا الى ما في الجزء الثاني من الأوهام اشارة قابس نار في مجلتنا ايضاً (لغة العرب ٩ : ٥٠٣) لكن ذلك غير واف بالغرض ، اذ لم نتعرض لهذه التغلية الا كمن يمر بالديار راكب القطار ، او ناقل الأخبار على أجنحة البرق خاطف الابصار ·

والآن أردنا ان نعيد نظرة ثانية في هذا المجلد الثاني ، ليعلم الواقف على هذا المقال ان هذا الديوان الجديد مفسدة للغة العربية ، ولكلام كل من ينقل عنه ، او يقتبس منه · والدليل : انك لا تجد فيه صفحة واحدة سالمة من عدة أغلاط · ولو كانت قليلة و يسيرة وخفيفة لهان الامر واحتقر ، لكنها مخلة بالمعنى والمبنى ، فاقتضى التنبيه على أمثلة منها ، لتجلي الحقيقة بصورتها الواضحة ، وتزول اللائمة من صدور بعض الثقات الاثبات ، الذين يتوخون الصدق في جميع شؤونهم ·

الصفحة الاولى من هذا المعجم هي نصف صفحة على الحقيقة ، وقد طالعناها بتؤدة ، فلم نر فيها خلالاً مميزة لها دون غيرها ؛ فقد بالغ بعض الكتبة في اعلاء شأن هذا

ARCHIVE

الكتاب ، مبالغةً مخالفةً لكل واقع . والذي ثابتناه ان هذا المعجم نسخة ثالثة من محيط المحيط ، (والثانية هي أقرب الموارد كما قلناه مراراً) ، والأغلاط الواردة في الأم ، واردة بعينها في الابنة معززيادة . نعم قد أصلح الشيخ عبد الله بعض هفوات محيط المحيط ، الا انه عوّض عنها باوهام شنيعة ، كرّهت المطالع ان ينعم النظر في ما حرره قلمه . ونحن نذكر لك بعض الأمثلة .

جاء في اول باب الضاد : « قال ابو منصور الثمثم الصدفة » وهي عبارة التاج . لكن الوارد في الشرح (اي التاج) هو من خطإ الطبع . والصواب : الثمثم الصدف ، كما في لسان العرب ، والثمثمة : الصدفة . اي صواب التعبير ان يفسر المفرد بالمفرد ، والجمع بالجمع على ماهو معهود .

وقال : « الضؤبان كقربان السمين الشديد من الجمال » ولم يذكر جمعه ، لان سائر الدواوين لم تذكره . الا ان التاج ذكره في مادة ض و ب : واحده كجمعه سواء . وهذا يجب ان يعرف ، لان المعاجم وضعت لمثل هذه الامور .

وفيها : « المضؤد المزكوم » والصواب المضؤود بواوين الاولى مهموزة والثانية ساكنة ، لان المضؤود على المفعول . وفي هذا اللفظ خمسة أحرف ، فيجب ان يكون في الموزون خمسة أحرف ايضاً ، كما هو فعل بنفسه حينما قال في ضأك «مضؤوك» .

وقال « وضأز فلاناً ، بخسه ومنعه » — والصواب ضأز فلاناً حقه بخسه ومنعه .

وفي تلك الصفحة « الضُؤْضؤ كهدهد والضِئْضِئُ كجِرْجِر ، والضِئْضِيءُ كجرجير والضُؤْضُوء كسُرسُور وضِيضَأٌ كزِهْدَع ، الاصل ... » والصواب وضِئْضأ كضفدع . لكن المؤلف اتبع رسم الكلمة على ماجاء في التاج المطبوع الكثير اغلاط الطبع . والصواب ان تثبت الهمزة الاولى الواقعة بعد الضاد الاولى ، لان اللفظ مهموز الثاني والرابع . وقد نبه على ذلك صاحب مد القاموس . — ثم ان اتخاذه (جرجراً) ميزاناً له فقد اتبع فيه صاحب القاموس . والذي كان يجب عليه ان يتخذ ميزاناً له لفظاً مشهوراً بين الخاصة والعامة . اي يقول كجعفر او كسبسب ، كما فعله القاموس نفسه ، في جميع المواطن الشبيهة لهذا الحرف . اما المشهور في وزن جَرْجَر ففتح الجيمين . نعم ان الجِرْجِر بكسر الجيمين وارد ايضاً ، ومعناه غير المعنى المفتوحيها ، بيد أن المعهود في الجرجر عند جميع

الناس هو فتح الجيمين ، وبمعنى آخر ، وهو ماتداس به الكدس من آلات الزراعة . فكان يحسن بالشيخ ان يتخذ اللاحب من الطرق لاالمندرس منها .

وقال في تلك الصفحة : وفي خطبة ابي طالب « الحمد لله الذي جعلنا من ضِئْضِئِ مَعَدّ وعُنصُر مُضَر » ... والذي في دواوين اللغة : «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضِئْضِئِ مَعَدّ ، وعُنصُر مُضَر » . فكان يجب ان يراعي الامانة التي اوتمنها ولايخالفها ، امّا اذا كانت نيته الاختصار ، فكان يحسن به ان يحافظ على الطريق التي اتبعها من تعمد الحذف و يجعل ثلاث نقط بدلها . فيكتب مثلاً هكذا : « الحمد لله الذي جعلنا من ... ضئضئ معدّ وعنصر مضر . » وعلى هذا الوجه يَسْلَم من كل نقد ، ويُرضي الحزبين : حزب المحافظين على سلامة النصوص . وحزب مختصريها .

وجاء فيها : « المضوضي: المصوّت » . وليس هذا صحيحاً ، فان المُضَوْضِيَ خاصّ بالرجال ، وكان عليه ان يقول : رجل مُضَوْضٍ او : المُضَوْضِيْ من الرجال المصوّت . — ثم قوله : « المضوضي بتسهيل الهمزة الاخيرة ليس هذا موطنه . بل مظنّته في مادة (ض وض) امامنا فكان يجب ان يقال المضوضئ اي بهمزة في الآخر لكنّه نقل ما جاء في القاموس ومن نقل عنه ولم يتروّ كل التروّي في ما نقل . واللغوي الضليع من يميز الغثّ من السمين ، ويأخذ الحسن و ينبذ الرديّ .

ومن منقولاته ، انه قال « الضُوْضُوه ايضاً كهدهد . الاخيل . توقف فيه ابن دُريد فقال ما ادري ما صحته » اه . قلنا في هذا التعريف عدة مغامز الاول انه قال الاخيل . وللاخيل عدة معان ، منها ، الكبر ، وذو الكبر وذو الخال اي الشامة ، وطائر مشؤوم ، او هو الصرد ، او هو الشقراق ، فأيّاً من هذه المعاني اراد صاحب البستان ؟ والذي يظهر من سياق عبارته أنه أراد معنى الطائر ، فكان عليه ان يقول ، الضوْضوه ايضاً كهدهد الاخيل للطائر المعروف ، او لهذا الطائر المعروف ، او ان يقول الأخيل بمعنى الطائر حتى تنتفي سائر المعاني التي تنطوي تحت الاسم المذكور . وهذا يجلي من كتابه نفسه اذا راجعنا معنى الاخيل . — وقوله توقف فيه ابن دريد يصح على المعنى الذاهب الى الطائر ، امامعانيه الباقية فلم يتوقف فيها ابن دريد . فهذا المغمز الثاني .

اما المغمز الثالث فهو : ان توقف ابن دريد في هذا المعنى ذكره صاحب حياة الحيوان ، على مانص عليه صاحب التاج · والدميري ليس بحجة في نقل الأسانيد اللغوية · والدليل ان صاحب المخصص قال في كتابه (٨ : ١٥١) [قال] ابن دريد : (الشقراق) وهو الضوضو ايضاً والشِرْشِق » اه · ولم يضعف هذه الرواية ولم يجرحها ولم يطعن بها ، ولم يقل ان ابن دريد توقف في معنى الضوضو ·

والمغمز الرابع : لو صح نسب هذا التوقف الى ابن دريد لما جازله ان يذكره في كتابه ، لانه كثيراً ماحذف الزوائد من الشروح والتفاسير والتآويل ، فكان عليه ان يسير في طريقه لايلوي عليها ولا على أمثالها ، بل يتمسك بالمبدإ الذي عاهد نفسه عليه ليكون معجماً حاوياً لباب اللغة ، لاقشورها اوزوائدها التي تترك للمعاجم الكبرى ، كلسان العرب أوتاج العروس أو مدّ القاموس ، الى نحوها ·

والمغمز الخامس انه لم يحقق شيئاً بنفسه عن لفظة الضوضو وعن معناه الحقيقي ، والذي ظهر لنا ان الكلمة لغة في اليُؤيُؤ ، في لسان من يقلب الياء ضاداً بعد ان يجعلها جيماً (راجع لغة العرب ٦ : ٧٨٧) لو من الصوائد الجوارح لامن البغاث · وقد نبه على هذا الامر ابن سيده في مخصصه · فليراجع (في ٨ : ١٥١ وفي عدة مواطن بعد تلك الصفحة) ·

وجاء في تلك الصفحة الاولى (تضوّل الرجل ضُؤُولة وضآلة ، صغر وضعف ...) قلنا : والذي في لسان العرب (ابو منصور ، تضوّل الرجل يضوُل ضآلةً وضُؤُولة ، اذا فال رأيه · وتضوُّل تضآلة ، اذا اصغُر) اه · فانظر كيف خلط مصدراً بمصدر ، ومعنىً بمعنى ، ومبنى بمبنى ·

وقال : « يقال (ماعليك فيه ضُؤُولة) اي صَغَار وضعف » اه · وهذا كلام لاغبار عليه · والذي عهدناه في هذا الديوان ان يفسر الصعب من الكلم بالفاظ سهلة يفهمها الجميع · فقوله صغار ، عوض (مذلة) التي استعملها سائر اللغويين ، من باب وضع الشيء في غير موضعه ·

* * *

تخطنا الفاظاً بعد الصفحة الأولى من هذا (الكنز الثمين) الصفحة ١٤٠٤ فرأينا ما يقول فيها « الغِبرِ نِّيسُ بالكسر وفتح الياء طائر يقال له الطيهوج وهو المعروف بالحجل » اه ·

فكم من غلط في هذه العبارة الصغيرة! — واول هذه الاوهام انه ضبط الضريس ضبط قلم وكليم بكسر الضاد واسكان الراء وفتح الياء نقلاً عن محيط المحيط، بحر الاغلاط ومأوى الاوهام. والصواب وزان زُنَيْبِر اي بالتصغير. قال الكمال الدميري في طرغلودس «يعرفه اهل الأندلس ويسمونه الضُرَيْس (بضاد معجمة مضمومة وراء مهملة مفتوحة وياء ساكنة منقوطة اثنتين من تحتها وسين مهملة). قال الرازي في كتاب الكافي هو عصفور صغير أصغر من جميع العصافير، لونه رمادي واحمر وأصفر وفي جناحيه ريشة ذهبية ومنقاره رقيق، وفي ذنبه نقط بيض متواترة، وهو دائم الصفير واجوده السمين» اه على انه قال في رسم الضريس «الضُرَيْس: الطيهوج» فالدميري ضاد نفسه بنفسه. ولم نر في سائر كتب اللغة ذكراً للضُرَيْس في مادة ض ر س، ولا في مادة ط هـ ج ولا ط ي هـ ج. والذي عليه العلماء ان الضُرَيْس تخفيف اليونانية طرغلوديس او ضرغلوديس.

هذا من جهة ضبط الكلمة. ولم نجد مؤلفاً قبل صاحب محيط المحيط ضبط اللفظ بالوجه الذي ذكره الشيخ عبد الله. على ان دوزي ذكر ان بعضهم سماه: (الضُرَّيس) بضم الضاد وتشديد الراء المفتوحة، ويحيل النظر على القزويني. وقد رأينا ان الضبط الصحيح هو ما ذكرناه عن الدميري وذكر عن ابن البيطار ان الطيهوج اي الدرّاج الا ان صاحب المعجم المنصوري يضعف هذه الرواية بقوله «وزعم ابن سمجون انه (اي الطيهوج) الضُريس ولم يصح». وقد ذكر الافرنج مايقابله عندهم في لسانهم فقال فريتغ هو الطرغلوديس (Motacilla troglodytes) وقال كَتْرِمْيُر إنه الضخم المنقار (Gros-bec) وذهب بابني انه الزرزور وهو في نظر (طُرْقة) ويسميه الدرّيس ايضاً طويئر يقيم في الغابات اسمه (pajarillo) او (Triguero).

جئنا الآن الى معنى الكلمة. فقد رأينا فيما نقلناه من الأقوال ان كثيرين منهم يقولون انه الطيهوج، لكن الطيهوج غير الحجل، نعم انه من جنس الحجل او شبيه به، لكنه ليس به. فالطيهوج هو المسمى بلسان العلم (Tetras bosania) لا كما قال احد الادباء انه (Ommoperdrix bonhami) إذن على من يؤلف المعاجم ان يتوخى اصدق المعاني والا لم يبق فيها فائدة.

ثم فتحنا بالاتفاق ايضاً الصفحة ١٤٥١ وفيهـا « الطزر محركة : النبت الصيفي معرب تزر بالفارسية » اه — قلنـا : والكلمة الفارسية (تزر) تعني البيت الصيفي لا النبت الصيفي ، لكن الرجل حاطب ليل ، يحطب فيما يحيط به من محيط المحيط ، فوجد العبارة التي نقلها ، فأدى النقل بامانة ماوراءها امانة . ولم يلتفت الى صحة ما كتب . على ان المعلم بطرس وجد هذا النقل في بعض دواوين اللغة فنقله ، إذ يُرى وارداً في لسان العرب . وخطأ الطبع سهل الوقوع . اما المحققون الاثبات فلم يفسروه الا بما فسرناه اعتماداً على لفظه الاصلي الفارسي .

وذكر في مادة (ط غ م) الطُغْمة . قال « الطُغْمة (وضبطها بالضم) الجماعة اسم واحد » . فكم غلطاً في هذه الكلمات الاربع ؟ . (١) انه ضبطها بالضم وهي بالفتح . (٢) ذكرها كأنها من حر كلام العرب وعتيقه . وهي مولدة . نقلها بُغْطُر وأمثاله ، فدخلت كتب النصارى الدينية . (٣) لم يشر الى انهـا دخيلة حديثة النقل في لغتنا وهي باليونانية (Tagma) . (٤) قال (الجماعة) ولم يذكر اي جماعة . أجماعة الناس ، ام الحيوانات ، ام الطير ، ام السمك . اذ لكل هذه المخلوقات جماعات وقد يكون لها شأن واحد كالحيوانات التي شأنها تقليد حركات الانسان ، وكالطير التي شأنها الطيران على وجه من الوجوه ، وكالسمك التي شأنها نوع من السباحة . فعلى كل هؤلاء البرايا تصدق الجماعة . وكان حقه ان يقول جماعة الناس ، لكن الرجل أراد ان يختصر فقصر — وفاته ان ينقل من محيط المحيط قوله وعنـد الحسابيين ما بين الربوة والملك ، وهما [اي الطغمة بمعنى الجماعة من الناس و بالمعنى الحسابي] من كلام المولدين اه . فلاستعجال الشيخ عبدالله في النقل نسي ان ينقل تتمة الكلام ، واهمل قوله من كلام المولدين ، فقطع العبارة ، فجاءت الطغمة انها فصيحة في نظر من يبحث عنها في البستان .

وكلام محيط المحيط بقوله « بين الربوة والملك » أغلق على دوزي . فنقل العبارة ووضع وراءها علامة استفهام كأنه لم يفهم المراد من هذه الرُطَيْنى الغريبة — فلذا والصواب بين الربوة والملك لكن زاد المنضد من عنده ميماً فانقلب الكلام "طمطمانية" .

احتجنا الى ان نطلب معنى (الطقس) اليونانية الاصل فرأيناه يقول مفسراً اياها « الطقس الطريقة . وغلب على الطريقة الدينية (نصرانية دخيلة) » اه . اما عبـارة

محيط المحيط فهي هذه « الطقس ... يطلق عند النصارى على شعائر الديانة واحتفالاتها معرب تكسيس باليونانية ، ومعناها نظام وترتيب ج طقوس » اه . فانت ترى من هذا الكلام ان صاحب محيط المحيط فهم معناها أحسن من الشيخ . لان الطقس الشعيرة الدينية و « الشعيرة واحدة شعائر الحج ، وهي مناسكه وعلاماته وآثاره واعماله وكل ما جعل عَلَماً لطاعة الله » (التاج) وهذه ما يسميه الافرنج (Rit, Rite) او (Cérémonie) اما الطريقة الدينية فهي — على ما عرفها السيد الشريف الجرجاني — (السيرة المختصة بالسالكين الى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات» اه . ومنها الطريقة القادرية والنقشبندية والمولوية والرفاعية والبدوية والسُّهْرَوردية والشاذلية والسنوسية والدسوقية الى غيرها . وهذا ما يسمى عند الفرنجية (Ordre) او (Congrégation religieuse .

وهناك ادلة عديدة على انه يتعسف الامور لجهله قواعد العربية ، فتراه يقول في مادة ع م ر س « العمروس ... ج عماريس وعمارس وهو نادر كقوله :

اولئك لم يدرين ما سَمَكُ القُرى ولا عُصّبت فيها رثاث العمارس » اه .

فانت تراه يقول « وعمارس وهو نادر » لانها عبارة محيط المحيط ، والقاموس الفيروزابادي . وكأنه يجهل ان فعاليل ومفاعيل وافاعيل قد تحذف منها الياء في الشعر ، كما ان فعالل ومفاعل وافاعل قد تشبع الكسرة في الشعر فيتولد منها ياء وكل ذلك غير نادر بل كثير الوقوع في اشعارهم مستفاض في منظوماتهم .

قال صاحب التاج في مادة (س ن د) وحديث مسند ، واحاديث مسانِد ومسانيد بزيادة التحتية اشباعاً ، وقد قيل انه لغة . وحكى بعضهم في مثله القياس ايضاً . كذا قاله شيخنا » اه . وقال المذكور في مادة ع ج ج « يوم معج ذو إعجاج . ورياح معاجيج اي ذات إعجاج . وضدها مهاوين . ومعجاج الريح التي تثير الغبار ، كما يصح ان تكون معاجيج جمع مُعيج . ومهاوين جمع مِهْوان . وقال ابن سيده يجوز ان يكون جمع مِهْوَن (التاج في هون) .

والظاهر من سرد البيت المذكور انه لم يفهم معناه ، لانه اورد رثاث العمارس التي هي جمع رثة بصورة (رثاث) بثلاثين قبل الالف وبعدها ، ولا معنى لها يتسق اتساقاً مقبولاً في هذا البيت .

ادبنا القومي

- ٩ -

عود على بدء

الآن وقد فرغنا مما اطرد فيه الكلام من الالمام بتاريخ النهضة اللغوية الحديثة ، والعلل في الاختلاف بين لهجات الادباء والكلام في القديم والجديد — نعود مستعينين بالله الى الكلام في ادبنا العام او (الأدب القومي) .

وقبل كل شيء ينبغي ان أقرر ان في مصر والحمد لله أدباً عربياً بارعاً وان فيها شعراء لا يتخلفون عن فحول الشعراء في ازكى عصور العربية ، وان فيها كتاباً لهم من فصاحة البيان وقوة التصرف ما لا يقل عما أثر عن السالفين من أئمة البيان ، وأزيد على هذا ايضاً انهم اجدوا على اللغة نفسها بما طبعوا من الالفاظ وما نظموا من الصيغ في اصابة المعاني الحديثة واداء الاغراض الطريفة . ولا يمكن مؤرخاً ان ينسى في هذا الباب ماجاء به الشيخ حسين المرصفي . وتلميذه البارودي . والشيخ محمد عبده . واللقاني . وسعد زغلول . والمويلحي الكبير . والمويلحي الصغير . ومحمود واصف . وامين واصف . واسماعيل صبري . واحمد شوقي . وحفني ناصف . وحافظ ابراهيم . وخليل مطران . وقاسم امين . ولطفي السيد . وعبد الخالق ثروت . واحمد زكي . والدكتور عبد الحميد بدوي . وطه حسين . وعبد القادر حمزة . والدكتور هيكل . ومحمد الهراوي . والمنفلوطي . والسكندري . وعباس العقاد . وابراهيم المازني . ومصطفى صادق الرافعي . وعبد الرحمن شكري . وغيرهم كثير . فانني لم اذكر من ذكرت على سبيل الحصر ، بل على سبيل التمثيل .

ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك ايضاً ان هذه النهضة مازال يعوزها شيئان : الاول ان ما بعثت من ادب العرب وما جددت من لغتهم انما ظل دائراً في الخاصة ، على حين ظل

سواد المصر بين بنجوة عن تذوق بلاغة العرب ، فعكفوا على ادبهم الذي الماث الى بعضه فيما سلف ، والذي سأعود اليه في شيء من التفصيل . والخلاصة انه لم ينبعث احد لتبسيط هذه اللغة وتيسيرها حتى تتعلق بروائعها أذهان جمهرة الناس ، اوعمل على رفع مستواهم حتى يدركوها ويتذوقوا بلاغتها .

اما الثاني فان جل ماتجدد في اللغة ونطرق منها الى اصابة المعاني الحديثة ، ان لم يكن كله ، انما كان من حظ المعنويات دون الماديات حتى اضطر الخاصة ، بله العامة . الى ان يعوذوا في سبيل الترجمة عنها بالتعريب .

ومما يحسن ذكره هنا ان بلاغة الخاصة لا يتذوقها الا الخاصة وحدهم ، اما بلاغات العامة وأشباه الخاصة فالكل في تذوقها واستشعار حلاوتها بمنزلة سواء .

ولست في هذا المقام بمجشمك ان تطلع على العامة ، بل وانصاف المتعلمين . بقصائد امريء القيس . وطرفة . والأعشى . ولبيد . والأحوص . وأراجيز رؤبة . والعجاج مثلاً . لتمتحن مدار كهم وتستخبر أذواقهم . بل أرد لهم من ذلك الشعر المرسل السهل اللين القائمة معانيه في ظواهر الفاظه ، اوهو الشعر الذي تسميه صديقنا شاعر النيل بالشعر (الدباح) اطلع بهذا على العامة وانصاف المتعلمين ترهم حتى اذا فهموه لم يتذوقوه ولم يحرك فيهم من الشجن كثيراً ولا قليلاً ، اذ تراه يهز نفوس الخاصة هزاً ، ويحز في كبودهم حزاً !

هل فانشد العامة وأنصاف المتعلمين قول الشاعر :

اقضي نهاري بالحديث و بالمنى	ويجمعني والهمَّ بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا بدا	لي الليل هزتني اليك المضاجع

او قول الشاعر :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا	كلانا على طول الجفاء ملوم

وقوله :

ابكي الذين أذاقوني مودتهم	حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتهضاً	بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبهم	بين الجوانح لم يشعر به احد

وقول الشاعر

حدثوني عن النهار حديثاً　　　أو صفوه فقد نسيت النهارا

* * *

ومازال يخفي الحب حتى حسبته　　　تنفس سيف احشائه وتكلما

* * *

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا　　　ثم القفول فقد جئنا خراسانا
يا ليت من نتمنى عند خلوتنا　　　اذا خلا خلوة يوماً تمنانا

* * *

احمامة الوادي بمنعرج اللوى　　　بحياة من ابكاك ماابكاك ؟
اما انا فبكيت من ألم الجوى　　　وفراق من أهوى أأنت كذاك ؟

* * *

ولما تدانى البين قال لي الهوى　　　رويداً وقال القلب أين تريد
وقال لي القادون ما أنت مشته　　　غداة قطعنا الرمل ؟ قلت أعود

* * *

ولقد وقفت على ديارهم　　　وطلولها بيد البلى نهب
وتلفتت عيني فمذ خفيت　　　عني الديار تلفت القلب

* * *

يامسرحة الماء قد سدت موارده　　　اما اليك طريق غير مسدود ؟

* * *

وكنت اذا ماجئت سعدى بارضها　　　ارى الارض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها　　　اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

* * *

ولما التقينا قرب الشوق جهده　　　شجيين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقاً في خلال صديقه　　　تسرب اثناء العناق وغابا

* * *

ايا برق ليس الكرخ داري وانما　　　رماني اليه الدهر منذ ليالي

وهل فيك من ماء المعرة قطرة ‏ ‏ تغيث بها ظمآن ليس بسالي

* * *

الا ياحمامي قصر دوران هجتما ‏ ‏ بقلبي الهوى لما تغنيتما ليا
وابكيتماني وسط صحبي ولم اكن ‏ ‏ أبالي دموع العين لو كنت خاليا

* * *

أأترك ليلى ليس بيني وبينها ‏ ‏ سوى ليلة إني إذن لصبور

* * *

وان مقيات بمنعرج اللوى ‏ ‏ لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

* * *

فديتك أعدائي كثير وشقتي ‏ ‏ بعيد وانصاري لديك قليل
وكنت اذا ماجئت جئت بعلة ‏ ‏ فافنيت علاتي فكيف أقول؟

* * *

يا ليت ماء الفرات يخبرنا ‏ ‏ أين تولت باهلها السفن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

آآخر شيء أنت في كل هجعة ‏ ‏ واول شيء انت عند هبوبي

* * *

وارحمتا للغريب بالبلد النا ‏ ‏ زح ما ذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا ‏ ‏ بالعيش من بعده ولا نفعا

ومن هذا الطراز في اشعار العربية كثير، فهلم انشده العامة وانصاف المتعلمين، بل وبعض المتعلمين فلست بواجده متدسساً منهم الى نفس ولا محركاً فيها شجنا، وهذا على سهولته وانكشاف الفاظه، ووقوع معانيه اكثرها للآداب العامية!

والوجه في هذا واضح جلي: ذلك ان العلاقة بين الألفاظ والمعاني انما هي علاقة وضعية بحتة، وان زعم بعضهم (كالصيمري) ان هناك علاقة عقلية بين الالفاظ ومدلولاتها بحيث لو تجرد الانسان وشحذ حسه، وتخلى عن شواغله لوقع على المعنى من نفس اللفظ ما له به عهد من قبل. وهذا على بعده وغرابته لا تراه يجدي من الجهة العملية كثيراً ولا قليلا

فلقد نشأنا نسمع اللفظ وندل (بضم النون) على معناه ، وبحكم التكرار في اللفظ واستحضار المعنى ، كما وقع في السمع ينعقد بينهما تمام الاتصال حتى لا يكاد الانسان يجيل المعاني في قرارة نفسه من غير ان تقوم في الفاظها المقسومة لها . اما تصور المعاني مجردة من الفاظهـا فذلك من الشاق العسير .

ثم ان النفس تستريح الى اللفظ بطول ترديده وتقليب اللسان فيـه . ثم ان الألفاظ فضلاً عن دلالتها على معانيهـا الاصلية بتطاول الزمن والاستعمال كثيراً ماتنم على دقائق لا ينم عليها غيرها . بل كثيراً مايعجز عن تجليتها الشرح والتفسير .

فاذا كان الخاصة يتذوقون الأدب العربي ويتطربون بروائعه فلانهم تعلموه وحذقوه وسلخوا السنين في حفظه وترديد النظر فيه . كما ان من حذقوا منا الفرنسية او الانجليزية مثلاً ودرسوا آدابها وقلبوا النظر في بدائع آثارها — يستريحون من غير شك ، اليها ، ويطربون بها .

وبعد فأنت تعلم ان العامية هي الفاشية في البلاد . وقد استقرت الفاظها على مختلف المعاني من الزمان البعيد ، وجمعت هي الاخرى لتناول من الدقائق مالا يكاد يفي فيه الشرح والتفسير . كما استراحت اليها آذان العامة والخاصة جميعاً بطول الاستعمال وكثرة التكرير . ولأورد عليك طائفة يسيرة من الألفاظ العاميـة ، لعلك مستخرج من صحيح العربية مايؤدي معانيها ، بل ومانتم عليه من الدقائق ، ولكن نفسك لا تستشعرها وتطبعها لحسك الا بعد العلاج الكثير في الزمان الطويل :

تقول : « فلان منزرق مني » و « فلان ماله كده بيتقمص بالمحل » و « الكوز اتلحق منه » و « يادوب نوصل المصر » و « الواد ده ابن حنت » و « يقعد ويجمص » و « خده على مشمه » و « سايه يرن » و « فلان ده قفا » و « قل له ينبط » و « اما راجل مقص » و « وفلان راجل عكي » و « فلان راجل مرم » و « التبن المهيطل » و « كان فلان بيمطه مهط » و « الولد صبح منيق » و « فلان ده مفلوت عياره » و « المسألة كانت بغمه » و « الولد ده دلوعة » و « استذوق » و « شوف لك قط غمضه » .

وارجو ان تبدل كل مايقع لك من (القافات) في هذه الكلمات (همزات) هذه طائفة من الفاظ العامية يشعرك كل منها معنى خاصاً ، ويجلي في نفسك صورة لا يستطيع ان يجليها

عليك غيره الا بطول الالف وكثرة العلاج والترديد .

ولقد قلت لك فيما سلف ان للعامة احساسهم وعواطفهم ولابد لهذه ان تختلج ولا بد لهذه ان تترقرق ولا سبيل الى حقنها في الصدور حتى يأذن الزمان فيحذقوا العربية الخالصة ، و يطبعوا ملكاتهم على آدابها فكان لابد لهم من ان يختتوا آدابهم من لغتهم و يصوغوه من متواضع لفظهم فكان لهم على هذا أدب بارع تلوّن في عدة صور ولوضاع . منها الزجل ، ومنها الادوار ، والموالي ، والواوات ، والطقاطيق ، والمنولوجات ، والامثال ، والنكات البلدية ، او مايعبر عنه عندهم (بالقافية) والتطرف (القفش) وغير ذلك ولقد احسنوا من هذا في كثير .

واني فوق هذا لأزعم ان لغة العامة تمتاز على لغة الخاصة بشيئين : الاول اننا جميعاً نشأنا في العامية وبها نتحدث ونتقاول في جميع اسبابنا ، ولا تستثنى من هذا الخاصة انفسهم . فهي ألصق بنفوسنا وادنى الى طباعنا ، وأقدر على تبيين أغراضنا وتصوير عواطفنا .

والثاني : انه اذا كانت أبلغ مظاهر الآداب هي الترجمة عما يختلج في النفس من فنون الاحساس وألوان العواطف وكانت هذه مستمدة عما يلابسنا و يحيط بنا اذ ان لكل معنى من ذلك في العامية اسماً ، ولكل معنى لفظاً ، لأن العامية لا تحرج ولا تتورع ، فان العامية من هذه الناحية أغنى وأعظم ، بالنسبة لنا ، وفراً .

وهنا أرجو من القارئ الابطالي فيخلق بين منية الكاتب وبين مجرد تقريره للواقع وانا انما أقرر الواقع في رأيي على الاقل ، اما أمنيتي واما سعادتي كلها فبأن يتقلص ظل العامية عن البلاد بحيث تخلفها على الالسن كلها سيدة اللغات .

—(*)—

رسالة الكرم

- ٨ -

« عصير العنب والزبيب »

السُّلافة والسُّلاف بالضم من الخمر أخلصها وأفضلها وذلك اذا تحلب من العنب والزبيب والتمر بلا عصر ولا مرث مالم يعد عليه الماء بعد تحلب اوله · قال الراغب السلافة ما تقدم العصر · وفي المخصص اذا أنقعت الزبيب اياماً فأول ما يرفع من عصارته السلاف ثم يصب عليه الماء فيكون ما يخرج منه بعد الماء خلاً · وفي اللسان والسلاف ما سال من عصير العنب قبل ان يعصر · وسلافة كل شيء عصرته اوله ·

الخُرطوم كزنبور اول ما يجري من العنب قبل ان يداس · وقال ابن الاعرابي انه السُّلاف الذي سال من غير عصر ·

مُجاج العنب ما سال من عصيره ·

العُنفوان ما سال من العنب من غير اعتصار · وعنفوان كل شيء اوله وقد غلب على الشباب والنبات ·

الدبس بكسرة وبكسرتين عسل التمر وعصارته وقيل عصارة الرطب وقيل ما تحلب من الزبيب والعنب ·

الصَّقْر والصَّقَر ما تحلب من العنب والزبيب والتمر من غير ان يعصر والصقر الدبس عند اهل المدينة ·

السَّقْر الدبس ومنه نخلة مِسقار يسيل سقرها اي دبسها ·

الإسفِنْط بكسر الهمزة مع كسر الفاء وفتحها المطيب من عصير العنب وقيل هي اعلى الخمر وقيل خمر فيها افاويه وقيل هي الخمر بالرومية · قال ابن السكيت وهي الاسفنط وهو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اسم بالرومية معرب وليس بالخمر انما هو عصير عنب · ويسمي اهل الشام لاسفنط الرساطون يطبخ ويجعل فيه افواه ثم يعتق · وفي اللسان واهل الشام يسمون الخمر الرساطون وسائر العرب لا يعرفونه · ثم قال ومنهم من يقلب السين شيناً فيقول رشاطون ·

تقدم ان النطل ماعلى طعم العنب من القشر كون النطل ما يرفع من نقيع الزبيب بعد السُّلاف وبعد صب الماء عليه ثانية · والناطل الخمر والجرعة من الماء واللبن والنبيذ · والنِّطل بالكسر خثارة الشراب · والمناطل المعاصر التي ينطل فيها ·

النبيذ الشيء المنبوذ والنبيذ ما نبذ من عصير ونحوه · والنبيذ ما يعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك · يقال نبذ التمر والعنب اذا ترك عليه الماء ليصير نبيذاً فصرف من مفعول الى فعيل وسواء كان مسكراً او غير مسكر فانه يقال له نبيذ · و يقال نبذ النبيذ وأنبذه وانتبذه ونبّذه ونبذت نبيذاً اذا اتخذته · و يقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ كما يقال للنبيذ خمر ·

الزبيبي بالفتح النقيع المتخذ من الزبيب ·

النَّقيع والنُّقوع شراب يتخذ من زبيب ينقع في الماء من غير طبخ · والنقيع والمنقع كمكرم كل ما ينقع تمراً كان او زبيباً او غيرهما كالمشمش والقراصيا والتين وما اشبههما ثم يصفى ماؤه ويشرب (والنقيع المحض من اللبن يبرد كالمنقع والنقيعة) · والنقوع ما ينقع في إناء من الليل لدواء او نبيذ و يشرب نهاراً و بالعكس ·

وذلك الاناء منقع ومنقعة وبكسرهما · وفي اللسان والنقيع والنقوع شيء ينقع فيه الزبيب وغيره ثم يصفى ماؤه و يشرب · والنقاعة ما انقعت من ذلك · قال ابن بري والنقاعة اسم ما أنقع فيه الشيء ·

النقد بفتح فسكون ولا يحرك هكذا قال في القاموس وفي التاج وصوب الصاغاني سكون القاف · وقد ضبط في اللسان بالشكل محركاً — شراب يتخذ من زبيب او عسل و يقال ان العسل ينبذ ثم يلقى فيه النقد فيشدده وهو نبات يشبه الكشوث وهو نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير ان يضرب بعرق في الارض ·

القنديد بالكسر عصير عنب يطبخ ويجعل فيه أفواه من الطيب ثم يعتق و يقال انه ليس بخمر وقيل هو الخمر ·

الفضيخ عصير العنب • وشراب يتخذ من بسر مفضوخ • والمِفضَخة بالكسر حجر يفضخ به البسر ويجفف • والمفاضخ الأواني التي ينبذ فيها الفضيخ وقد تقدم • أفضخ العنقود اي حان ان ينفضخ و يعتصر ما فيه •

البُخْتُج كقنفذ العصير المطبوخ واصله بالفارسية (ميبُخْتَه) اي عصير مطبوخ •

الجمهوري بالضم اسم شراب مسكر او نبيذ العنب أتت عليه ثلاث سنين • وفي حديث النخعي انه اهدى له بختج قال هو الجمهوري وهو العصير المطبوخ الحلال • وقال ابوحنيفة واصله ان يعاد على البختج الماء الذي ذهب منه ثم يطبخ و يودع في الاوعية فيأخذ أخذاً شديداً • وقيل انه سمي الجمهوري لان جمهور الناس يستعملونه اي اكثرهم •

الصَّعْف والصَّعَف شراب لاهل اليمن وصناعته ان يشدخ العنب ثم يلقى في الاوعية حتى يغلي • وقيل هو شراب العنب اول ما يدرك وقيل هو شراب يتخذ من العسل • والصَّعْفان المولع بشرب الصعف وهو العصير •

الباذق بكسر الذال وفتحها ما طبخ من عصير العنب ادنى طبخة فصار شديداً • قيل اول من وضعه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر •

الخَمْر كفلس ما أسكر من عصير العنب لانها خامرت العقل • وقال ابو حنيفة قد تكون الخمر من الحبوب • قال ابن سيده واظنه تسمحاً منه لان حقيقة الخمر انما هي للعنب دون سائر الاشياء • وفي التاج الأصح عند الجمهور ان الخمر عام اي هو عصير كل شيء يحصل به السكر •

والخمر تذكر وتؤنث والأعرف فيها التأنيث • وذكر في التاج والمصباح ان الاصمعي أنكر التذكير ولكن كلامه في كتاب النخل والكرم يخالف هذا فقد قال فيه : قالوا هي الخمر وهو الخمر مذكر ومؤنث لغتان • وفي اللسان والخمر ما خمر العقل وهو المسكر من الشراب وهي خمرة وخمر وخمور مثل تمرة وتمر وتمور • وفي القاموس الخمر ما أسكر من عصير العنب كالخمرة • وفي المصباح و يجوز دخول الهاء فيقال الخمرة على انها قطعة من الخمر كما يقال كنا في لحمة ونبيذة وعسلة اي في قطعة من كل شيء منها •

وخَمَر الرجل والدابة يخمُره خمراً سقاه الخمر والمُخَمِّر كمحدث متخذ الخمر والخمّار بائعها • ويقال غالت الخمر فلاناً اذا شربها فذهبت بعقله او بصحة بدنه •

والغول الصداع او السكر وبه فسّر قوله تعالى : « لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون » أي ليس فيها غائلة الصداع · وقال ابوعبيدة : الغول ان يغتال عقولهم وأنشد :

وما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول

اي توصل الينا شراً وتعدمنا عقولنا ·

وعنب خمري يصلح للخمر ، ولون خمري يشبه لون الخمر · وقد تقدم ان العنب يقال له الخمر كما يقال للخمر العنب · ويقال للخمر سويق الكرم أنشد سيبويه لزياد الأعجم :

تكفّني سويق الكرم جَرْمٌ وما جرم وما ذاك السويق
وماعرفت سويق الكرم جرم ولا أغلت به مذ قام سوق
فلما نزل التحريم فيها اذا الجرمي منها لا يُفيق

ويقال للخمر ام الخل ·

السكر بفتح السين والكاف الخمر المعتصر من العنب قال ابن الاثير هكذا رواه الاثبات ومنهم من يرويه بضم السين وسكون الكاف · والسكّار النبّاذ ·

الخل كفلس ما حمض من عصير العنب وغيره جمعه خلول كفلوس سمي بذلك لانه اختل منه طعم الحلاوة · يقال اختل الشيء اذا تغير واضطرب · والخل واحدته خلّة يذهب بذلك الى الطائفة منه · وقال ابوزياد جاؤا بخلّة لم فلا أدري أعنى الطائفة من الخل أم هي لغة فيه كخمر وخمرة · ويقال خلل الرجل النبيذ تخليلاً اذا جعله خلاً · ويستعمل لازماً فيقال خلل النبيذ اذا صار بنفسه خلاً · وتخلل النبيذ في المطاوعة ·

قال الأصمعي وان أردت صنعة الخل اخذت من العنب ما بدالك فتنزع ثفاريقه وتلقي بعضه على بعض في جرة وتتركه حتى يجود ثم نصفيه فتعزل ماءه الاول وتصب على النطل من الماء ما يغمره فاذا احتاج اليه صفي ماؤه واستعمل وترك الماء حتى يدرك · وقال آخر يصب على العنب مثلاه من الماء ويترك حتى يحذق اي يحمض ثم يصفى ويصب مثلما يؤخذ منه ولم يصف ·

وخلل الرجل البسر جعله في الشمس ثم نضحه بالخل ثم جعله في جرة وكذا غير البسر كالخيار والكرنب والباذنجان والبصل · فهو مخلل · والاختلال اتخاذ الخل من عصير العنب

والتمر · وفي اللسان والتخليل اتخاذ الخل · والخلاّل كشدّاد بائع الخل وصانعه ·
وخللت الخمر وغيرها من الاشربة تخليلاً فسدت وحمضت وخلل شراب فلان اذا فسد وصار خلاً ·

وفي المثل ماهو بخل ولا خمر اي لاخير فيه ولا شر · وحكى ثعلب ما له خل ولا خمر اي ماله خير ولا شر ·

التجير كرغيف · تقدم ان التجير ثفل كل شيء يعتصر · والتجير ما عصر من العنب فجرت سلافته وبقيت عصارته و يقال هو ثفل البسر يخلط بالتمر فينتبذ · وقال ابوحنيفة يقال لما بقي من ثفل العنب التجير · والتّجْر طرح التجير في النبيذ ليشتد وهو الخمر فان طبخ بعد ذلك حتى يؤتدم به و يشرب ولا يغلي فقد أرتب وهو الرُب وأعقد وهو العقيد وكل شيء يطبخ حتى يثخن فقد أعقد · وقال ابوعبيد عقّدته حتى عقد يعقد وهذا في القطران والرب والعسل ونحو ذلك · وقال ابو حنيفة ويسمى ذلك العقيد دبس العنب وهو الطلاء تشبيهاً بطلاء الابل ·

الرُبّ بالضم الطلاء الخاثر وقيل هو دبس كل ثمرة وهو سلافة خثارتها[1] بعد الاعتصار والطبخ والجمع الرباب والرُبوب ·

وارتُب العنب اذا طبخ حتى يكون رُباً يؤتدم به · قال الأصمعي قال الطائفي اذا أردت صنعة الرُب اخذت من الغربيب والأفاعي الفارسي او الأفاعي العربي او النواسي ما بدا لك حين يعقد فتُغْمله وإغماله ان تجعله في غرارة اومكتل فتصب بعضه على بعض فتدعه في الشمس ثلاثاً اواربعاً ثم تفضخه ثم تصفيه وتجعله في قدر متوقد وقوداً غير شديد وتخرج رغوته وزبده وتطبخه حتى يعقد · وقال غير الطائفي غمّله يغمُله ·

وان أردت صنعة المريث[2] اخذت ثفاريق العنب والحبة فيبستها ثم دققتها دقاً شديداً ثم بللتها بفضيخ العنب شيئاً ثم تلته برغوة الرُب ثم شيء (كذا) من رُب تخلط فيها

---

(١) الخثارة بالضم البقية · (٢) لم نجد المريث في اللسان والتاج ولعله فعيل بمعنى مفعول من مرث الشيء في الماء اذا انقعه فيه او من مرثه لينه حتى صار مثل الحساء ثم تحساه و يقال مرثه اذا مرسه في ماء وغيره حتى تتفرق اجزؤه ·

شيئاً من سويق البلسن وهو العدس فتكبه به . وقال بعضهم المريث يعمل من سويق البلسن ومن البَهْش(١) يعني المقل ومن النطل ومن الثفاريق ومن الحَدَل(٢) والحدل شجرة تكون بتهامة يقال لها الاعاليف فذلك ما كان طحن ثم سقي الرُب والحدل يعمل من الطفق وهو مما يصف الحَمصيص(٣) يرب بعصير العنب ثم يؤكل .

الطلاء ككتاب ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وفي القاموس الطلاء خاثر المنصف(٤) . وقال ابن الاثير هو بالكسر والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب قال وهو الرُب واصله القطران الخاثر الذي تطلى به الإبل . والطِلاء في اللغة كل ما طليت به .

ويقال عقد العسلُ والرُبُّ ونحوُهما يعقِد وانعقد وأعقدته فهو معقَد وعقيد اي غلظ . وكذلك عقيد عصير العنب . ويقال للقطران والرب ونحوه أعقدته حتى تعقّد . وفي القاموس عقدته تعقيداً أغليته حتى غلظ كأعقدته .

عضو المجمع العلمي
سليم الجندي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) البهش رديء المقل وقيل الرطب من المقل والحَشْل يابسه والمج نواه والخَتِيّ سويقه . (٢) في اللسان الحَدَال شجر بالبادية وقال الصاغاني صوابه بالذال .

(٣) في اللسان الحمصيص بقلة دون الحماض في الحموضة طيبة الطعم واحدته حمصيصة وقال ابو حنيفة بقلة الحمصيص حامضة تجعل في الاقط تأكله الناس والإبل والغنم . ولايخفى مافي هذه العبارة من الركاكة والغرابة اللتين تدلان على براءة الاصمعي من هذا الكتاب وقد أشرنا الى ذلك في المقدمة . وانا لم أجد للطفق ذكراً في اللسان والتاج وغيرهما مما لدينا من كتب اللغة .

(٤) والمنصف كمعظم الشراب يطبخ حتى يذهب نصفه .

آراء وافكار

واسطة السلوك

« في سياسة الملوك »

— ومثال رائع من أمثلة الحضارة العربية —

وصف السيد محمد السعيد الزاهري « تلمسان — الجزائر » كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف السلطان ابي حمو موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان (مجلة المجمع العلمي م ١١ ص ٩٧ — ١٠١) وذهب الى انه « لا يزال مخطوطاً لم ينشر بعد » . والحق ان الكتاب قد طبع في تونس سنة ١٢٧٩ هـ كما ورد في « كشف القنوع بما هو مطبوع » (ص ٣٨٧) ويقول زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (م ٣ ص ٢٥٩) انه طبع في الاستانة ايضاً سنة ١٢٩٥ هـ .

اما الطبعة التونسية وهي في (١٧٥ صفحة) بقطع متوسط ، في كل صفحة ٢٦ سطر وفي كل سطر زهاء ١١ أو ١٢ كلمة . وقد عُني بتصحيحها الشيخ محمود قبادو ومحمد البشير التواتي ، ونجز طبعها « ... بمطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية في رابع ثاني الربيعين سنة تسعة(؟) وسبعين بعد المائتين والالف من الهجرة » . وصدرت بكلمة تصف بعض نواحي المؤلف زعموا أنها ترجمته ، وقد استوعبت صفحةً وبعض صفحة ، ومن الخير ان نروي طرفاً منها على علاته فان فيه حديثاً رائعاً اذا صح كان غرة شادخة في جبين الحضارة العربية يضاف الى مافيها من غرر معلومة ومجهول .

ودونك ذلك « الحمد لله . ذكر ترجمة المؤلف ، هو السلطان ابو حم (؟) موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان ، وكان رحمه الله يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال بما هو فوق مواسم العام على ماهو منقول من راح الارواح

ومن نظم الدر والعقيان فيقيم مدعاة (؟) يحشر لها الناس عامة وخاصة فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وبسط موشاة ، ووسائد بالذهب مفشاة ، وشمع كالاسطوانات (؟) وموائد كالهالات ، ومباخر صفر ، منصوبة كالقباب يخالها المبصر من تبر ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفس وتستلذها الاعين . ويعقب ذلك يحتفل المسمعون بامداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبقرب السلطان خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فمها مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من ابوابها وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويدها اليسرى على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة . هكذا حالهم الى انبلاج الصباح ، ونداء المؤذن : حي على الفلاح ... » .

وقد أشار الزاهري الى ان النسخة التي يصفها لم يذكر في اولها اسم المؤلف وانما ذكرت بعض اخبار بني زيان وذكرت معها اتوار يحسا يستطيع الباحث ان يعلم منها اسم المؤلف وانما هو موسى بن حمو (؟) بالرغم من شك ، ثم أورد بيتين من قصيدة للمؤلف في الكتاب تأييداً لما ذهب اليه ، وهما :

وانا موسى بن حمو أصلح الملك ولا (؟) يصلح لي
فأنا للطفل كوالده وأسوق الشيخ على مهل

والطبعة التونسية تصرح باسم المؤلف في فاتحة الكتاب تصريحاً لا تبقى معه حاجة الى الاستدلال بالشعر وما اليه ، وهذا نص ما جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد . كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف الامام الملك الهمام الاسد الضرغام امير المسلمين مولانا موسى بن يوسف ابو حمو بن زيان العبد الوادي رحمه الله تعالى . الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال ، وهو الكبير المتعال ، خالق الأعيان والآثار ، ومكوّر الليل على النهار ... » .

وقول الزاهري « هو موسى بن حمو » من خطأ الطبع فيما يظهر لانه ذكر مراراً

أنه موسى ابو حمو كما هو الحق وكما جاء في البيت الذي أورده ، وقد وقع فيه غلط وصوابه كما في الطبعة التونسية :

وأنا موسى وابو حمّو أصلح للملك ويصلح لي

والبيت الثاني الذي أورده إنما يقع في القصيدة قبل هذا البيت بخمسة أبيات ، وفيه : أحنو للطفل ... بدل : فأنا للطفل ... وقد شك في كلمة « الاعتناء » التي جاءت في مقدمة المخطوطة « ... وقرة كل عين ، ووصلة الانساب ، وسلسلة التناسل والاعتناء ... » وهي في المطبوعة « والاعتقاب » كما ان قوله « ووصلة الانساب » فيها « ووصلة للانساب » . وقد لاحظت في المطبوعة أغلاطاً كثيرة خفيت على المصححين أو هي من المؤلف ، ولست أريد ان أعرض لتحليل لغته ونمط انشائه فقد قصدت الى غير هذا ولكل مقام مقال .

بغداد : محمد بهجة الاثري
عضو المجمع العلمي العربي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مطبوعات حديثة

الشرع الدولي في الاسلام

« وضعه السيد نجيب الارمنازي »

— الحكيم في الحقوق والمجاز في العلوم الدولية العليا —

Les principes Islamiques

&

Les rapports Internationaux en temps de Paix et de Guerre .

الناس الا أقلهم ، يأخذون الامور بظواهرها ، ويتوهمون الحاضر صورة عن الماضي ، فاذا رأوا أمة ناهضة تخيّل اليهم انها كذلك منذ كانت ، وأخرى عاثرة حسبوا العثار طبعاً فيها ، لا تقال منه . وهم بعد ينسبون الى الاولى كل محمدة عرفوها . ويلصقون بالثانية كل مثلبة انكروها .

ولقد لقينا نحن العرب من هذا الامرّين . عرّفنا الناس وقد اضعنا تراثنا القديم ، فقاسوا على حاضرنا الباهت ، ماضينا الزاهر ، فجاءت احكومتهم فينا مغلوطة جائرة .

ولقد تفطن لذلك فريق من الناشئين النابهين ، الذين قصدوا في طلب العلم الى دار الغرب ، فجدوا في التنقيب عن أمجادهم الغابرة ، وعلومهم المنسية ، وتناولوا في أطروحاتهم العلمية طائفة من علوم العرب وآرائهم وأقوالهم التي توافق — من حيث المبدإ والاساس — كثيراً من علوم العصر الحاضر . وقد أشرنا في هذه المجلة الى كثير من هذه الاطروحات القيمة . وبين أيدينا الآن أطروحة السيد الارمنازي .

والموضوع دقيق ، بل هو ايضاً غريب على السمع وقعه (الشرع الدولي في الاسلام) فهل في الاسلام شرع دولي ؟ وهل كتب العرب في شيء لم تعرفه الامم الا في العصور

المتأخرة ؟ ام هي خطرات يوسوس بها شيطان الغرور في صدور هذه الامم المتناغية بماضيها ، فتكثر من التحدث عن مفاخر ، منها ما كان ، ومنها ما لم يكن ، شنشنة معروفة في العاجزين ؟

هذا اول مايتبادر الى ذهن القارئ او السامع ، ولسنا ننكر ان مثل هذا البحث يتطلب مدارسة وعناء حتى يستخرج المؤلف من حادثات الماضي ووقائعه ، ماينطبق على ما أسموه بـ « الحق في الدولية » . غير ان جهود السيد الأرمنازي وعلمه ، وخصب التاريخ العربي ، ومنابع السياسة الشرعية الاسلامية ، كل هذا ، ذلل جميع تلك الصعاب . فاذا بالذي كان شكاً يصبح يقيناً ، واذا بالمرتاب يعود مؤمناً ، والمنكر يرجع مقراً ، بعد الحقائق التاريخية التي أتى بها المؤلف .

فهو يسرد الاسس التي يتعين على المسلمين ان يجروا عليها في معاملة غير المسلمين : محاربين او مسالمين ، أشخاصاً كانوا ام دولاً ، في دار الاسلام وفي خارجها . ويلم بشريعة الحرب ، ومذاهب المسلمين في القتال ، وفي السياسة العسكرية ، وفي السلم والتحكيم ، والامان والمعاهدات . ثم ينوه بالعلاقات السياسية والتجارية التي ألفها الاسلام ، وفي بعث الرسل والسفراء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه خلاصة بعض الابحاث القيمة التي عالجها السيد الارمنازي . ولقد انفرد دون باقي اخوانه بان نقل كتابه هذا الى العربية بلغة عالية ، وتبسط في البحث فأتى بالحسنيين ، واستحق الشكر مرتين . عارف النكدي

نشرة الجمعية الخلدونية

« بتونس عن السنة ١٩٣٠ »

اذا قيل للشامي ان في تونس جمعية علمية أهلية لها مدرسة تجهيزية تحوي في قسميها الابتدائي والثانوي نحو ٦٠٠ تلميذ يدرسون العربية لاستغرب الأمر ولما صدق هذا النبأ . ذلك ان انقطاع الصلات بين الشام وتونس جعلنا نعتقد ان هذا القطر العربي مقضي عليه علمياً وادبياً واقتصادياً إن عاجلاً وإن آجلاً . ولقد جاءت هذه النشرة لتدحض هذا

اليوم وتنبئ بان هنالك نهضة علمية وأدبية لا بأس بها اليوم قد تأتي بأينع الثار اذا تعاهدها المستنيرون من التونسيين بعزيمة وثبات ٠

أسست الجمعية الخلدونية سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) وغايتها نشر المعارف بين التونسيين وارسال بعثات مدرسية الى فرنسة وتأسيس دور للكتب واظهار مدنية العرب للفرنسيين ومدنية الفرنسيين للعرب بنشر جريدة عربية فرنسية ٠

وقد جعلها مقام الباي العالي تحت رعايته وانخرط في سلكها كثير من وجهاء البلاد والتفت مدرستها منذ ذلك الحين فأخذت تسير الى الأمام سيراً مطرداً حتى قارب عدد تلامذتها اليوم ٦٠٠ تلميذ وصار لديها خزانة كتب تحوي خمسة آلاف مجلد تقريباً منها مخطوطات نادرة ٠ وبلغ معدل الذين يختلفون اليها لمطالعة الف مطالع في الشهر وهو عدد لا يستهان به في تونس ٠

واتضح لنا من برنامج الدروس ان المدرسة الخلدونية تعادل الصف التاسع او العاشر من مدارس التجهيز لدينا ، وان فيها علاوة على ذلك محاضرات يلقيها بعض الأساتذة في تاريخ آداب اللغة العربية والاقتصاد السياسي وحفظ الصحة والمواقف الحاسمة في تاريخ الاسلام ٠ وعدد هذه المحاضرات خمس في الاسبوع وهي مباحة لطلاب الفائدة من الأهلين ٠ والجمهور يقبل على استماعها حتى ان عدد المستمعين لا يقل عن ٢٠٠ — ٣٠٠ مستمع لكل محاضرة ٠

وجاء في النشرة نموذج من تلك المحاضرات يدل على فضل المحاضرين وتضلعهم بالموضوعات التي يعالجونها كمحاضرات الاستاذ ابن عاشور في القاضي الفاضل وفي محمد المونجي والاستاذ عثمان الكعاك في ديانة ابن المقفع وفي ابي السلط أمية بن عبد العزيز ، والأستاذ احمد المهدي النيفر في الأعشى ٠

وجاء فيها ايضاً مقالة في « شهيرات الدور الماضي » للعالم الكبير حسن حسني عبدالوهاب احد اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق عن كتاب « شهيرات التونسيات » تأليف المومأ اليه وهو لم يطبع بعد ، ومقالة ممتعة عنوانها « مصير الأندلسيين » لمحمد الطاهر بن عاشور كبير اهل الفتيا من السادة المالكية ، وبحث أدبي علمي عن النحل للأستاذ مصطفى الكعاك المحامي ورئيس جمعية قدماء الصادقية ، وفصل في الجاذبية العالمية للأجرام